fofoyoyo
عنترة بن شداد
١٢
دار المعارف بمصر

عنترة بن شدّاد

عنترة بن شدّاد

١٢

تأليف

حسن جوهر   محمد أحمد برانق

أمين أحمد العطّار

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

١

وطلب معديكرب أن تلبس نساءالعرب ملابس الفرسان حتى يكثر جمعهم ، ولا يطمع فيهم طامع فى أثناء عودتهم ، فنزل على رأيهم وأمدهم بالمال والسلاح ، ثم ركبوا خيولهم إلى أهليهم ، وقد سارت عبلة إلى جانب عنترة ، وحدثته بكل ما جرى لها حتى قتلت أزدشير .

وبينما هم سائرون رأوا على بعد رجلا مجداًّ فى سيره ، قاصداً مدينة كسرى ، فحسبه عنترة رسول كسرى إلى المدينة ، وأمرهم أن يطلبوه ليسألوه عن كسرى وما فعل بالعرب ، ولكنه لما رأى الخيل تجرى إليه ظنها للفرس فأطلق ساقيه إلى الريح ، ونبهت سرعته ظنًّا فى نفس عنترة فقال : يخيل إلىّ أن هذا أخى شيبوب ، ثم أطلق العنان لجواده يعدو من خلفه وهو من أمامه يعدو فى سرعة البرق ، فصاح به عنترة صيحة عرفها شيبوب ، فتمهل فى جريه حتى يتأكد من صدق الصيحة فى نفسه ، فلما عرفه وقف حتى التقى بأخيه عنترة، وكان لقاء حارًّا ، وكان السرور عظيما ، وأضاء الفرح وجوه الفرسان والنساء ، ثم قال عنترة : خبرنا عن كسرى والعرب قبل أن تسألنا عن شيء فينا ، فقال : بعد أن أسرت أنت وصحبك أمر دريد أن نتخذ من الجبال حصوناً ، ولم يسكت القتال بيننا وبين جيش كسرى ، وقتلوا منا وقتلنا منهم ، وتركتهم على هذه الحال ، ولا أدرى ما جرى بعد فراقهم ، وقد كلفنى دريد أن أذهب إلى مدينة كسرى لأتبين أخباركم فجئت مسرعاً ، ولما رأيتكم أوجست خيفة ففررت منكم ،

وما عرفتك إلا بصيحتك فوقفت مسروراً بلقياك ، ولولا معرفتى إياك ما
شققت لى غباراً ؛ وكيف خلصتم من أيدى أعدائكم ؟ ! فقال عنترة :
بسيف عبلة وشجاعة قلبها . ثم حكى له ما جرى لهم حتى خلصوا من الأسر
مكرمين ، واستأنفوا مسيرهم حتى كانوا بأرض الحجاز ، فأخذوا يتشاورون
ماذا هم فاعلون لنصرة فرسانهم الذين أوَوْا إلى الجبال يعصمون بها أنفسهم
من جيش كسرى الذى يحاربهم ، فقال عنترة : أرى أن تسبقنا النساء
مع شيبوب وميسرة ومازن وعامر بن الطفيل وفارسين قويين إلى دريد ،
وليسلكوا بهن طريقاً آمناً بعيداً من المخاوف ، فإذا ما وصلوا إلى دريد بن
الصمة هناك أخبروه أن يستعدوا لخوض معركة فاصلة يخوضون غمارها إذا
ما سمعوا صيحاتنا تحت أعلام جيش كسرى ؛ أما نحن فلنأخذ سمتنا إلى
ذلك الجيش وسوف لا يعرفوننا ؛ لأننا متنكرون فى أزيائهم ، فإذا ما تمكنا
منهم صحنا صيحات مدوية ، وأعملنا فيهم سيوفنا المرهفة ، وحينئذ يهجم
عليهم دريد بجيشه من كل جانب ، يختلط حابلهم بنابلهم ،
ولا يدرون من أين يجيئهم الموت ، ولا يجدون ملجأ يلوذون به إلا الفرار ،
بعد أن يصيبهم منا نقص فى الأنفس ، وضعف فى القوة ، ورهبة تخلع
القلوب التى فى الصدور ؛ وربما عثرنا فى هذه المعركة بكسرى فقتلناه ،
وبقتله يصبح جيشه ضعيفاً .وكذلك دبر عنترة ورسم الخطة التى ساروا
عليها .

وقبل أن يصل عنترة إلى مكان الجيش عاد إلى كسرى رسوله الذى
بعثه إلى مكة ليأتيه بخبر عن ذى الخمار وجيشه ، وأخبره أن جيش ذى
الخمار لم يبق منهم أحد حيًّا ، ففزع كسرى لهذا النبأ ، وظن أنه نذير هزيمته
واندحار جيشه ، وأصابه وجوم ينبئ عن غم عظيم ، فقال أحد وزرائه
يخفف عنه أحزانه ويواسيه : جدير بالملوك العظام أن يصبروا ولا يجزعوا ،
وأنت أشد من العرب قوة وأكثر عدداً ، فأغدق المال على قواد جيشك
والأبطال الجبابرة من فرسانك ليزيدهم ذلك قوة على قوة ، وليحملوا على
العرب حملة عنيفة لعلها تكون القاضية ، واعلم بأنك لن تهزم فى هذه الغزوة
لأن العرب أصبحوا من الضعف والقلة بحيث لا يستطيعون أن ينالوا منا نيلا ،
فسرى عن كسرى ، وبات مرتاح البال ، هادئ الضمير . وفى الصباح أغدق
المال على القواد والأبطال ، وبدأت معركة حامية دوّت فيها رعود المنايا فى
سماء الغبار المتكاثف المنتشر ، وأفل فيها نجم الحياة فى كثير من فرسان
العرب ، وما نفس عنهم كربتهم إلا قدوم الليل الذى وقفت عنده رحى
القتال .

بات العرب على غيظ مما أصابهم ، وعلى عزم شديد أن يخوضوها غداً
خوض المستقتل الذى يحرص على الموت حرصه على الحياة ، وبات كسرى
ورجاله على أمل عظيم فى نصر مبين ، وكان غد ذلك اليوم أشأم منه
طلعة وأنكد حظاً ، فقد قتل منهم كثير ، وأسر منهم كثير ، حتى إذا

استيئسوا ، وظنوا أنهم قد أخذوا ، جاءهم عنترة وصاح فى الفرس صيحته وسمعوا أصواتاً تردد : أيها العرب ، شدوا عزائمكم ، فقد قتل كسرى ، وحلت بجنوده البلوى ، وذلك أن عنترة ومن معه من الفرسان اختلطوا بجنود الفرس ، وانبثوا بينهم ، وأعملوا فيهم سيوفهم ، وقتلوا كسرى وعدداً كبيراً من رجاله . ولما دوّى الجو بهذه العبارات ، وجعلت سيوف العرب تحصد الرءوس ، وأيقن الفرس أن كسرى قد مات — خارت منهم العزائم وزلزلت أقدامهم ، فلجئوا إلى الصحراء ، وهاموا فيها على وجوههم ؛ أما العرب فقد تركوا من الجبال معاصمهم ، وانبثت فى البطحاء خيامهم ، وأخلدوا إلى الراحة فرحين بنصرهم . وجلس عنترة إلى قيس فحدثه بما لقوا من العذاب والعنت مدة غيبته ، وحدثه عنترة بما جرى لهم وبما كان من عبلة ، وكيف خلصوا ؛ وكيف ضمن لابن الملك قباز موت أبيه كسرى ثم سأل عنترة عن النساء اللائى أرسلهن مع شيبوب وصحبه فقالوا : ما جاءنا أحد ، وما علمنا عنهن خبراً ، واعتراه قلق على النساء وعلى ابنه وأخيه ومن معهم من الأبطال ، فقال دريد : أين فارقتم النساء وحماتهم ؟ فقال : عند ما وطئت أقدامنا أرض الحجاز ، فقال : فى الصباح نؤلف منا طوائف تذهب كل طائفة فى سبيل ؛ ليبحثوا عنهم ويعودوا إلينا بالخبر اليقين ، وما كادت الطوائف تركب خيلها فى الصباح ، وتأخذ طرقها حتى طلع عليهم شيبوب مخضباً بدمه ، ويدعوهم إلى النجدة ، وتخليص النساء من يد الأعداء ،

فسأله عنترة عما جرى فقال : لقينا فى طريقنا بعد مسيرة يومين من فراقكم خمسون من فرسان اليمن وعلى رأسهم فارس أسود اللون ، واسع الصدر ، مفتول العضلات ، مبسوط الأعضاء ، منحته قوته ثقة بالنفس ، وجرأة فى القلب ، فلا يهاب أحداً ، ولا يرهب موتاً ، له دربة فى القتال ، وخبرة بملاقاة الأبطال ، وكأنه فى كل أولئك عنترة بن شداد ، ويسمى غصوبا ، فنادى فينا : إلى أين تذهبون يا أبناء الفرس ؟ انزلوا عن خيلكم ، وألقوا أسلحتكم ، وأسلموا أنفسكم ، وإلا تفعلوا فقد حل بكم هلاك عاجل ، فأمرنى عامر أن أتقدم إليه ، وأحذره التعرض لنا ، أو تعويق سيرنا ، وإلا أنزلنا به وبفرسانه الموت الزؤام ، وأعرفه أننا من فرسان بنى طى أصحاب إياس بن قبيصة ، وقد كنا معه فى معونة كسرى فما أبه لتهديدنا ووعيدنا وقال : خسئت وخسئ من بعثك ، ثم همّ بطلبنا وقد حسب النساء فرساناً لأنهن يلبسن ملابس الفرسان ، فاعترضه عروة ، ثم ميسرة ، ثم مازن ، ولكنه انقض عليهم انقضاض الصقر فوقعوا أسرى فى يديه واحداً بعد الآخر ، ثم أحاط أصحابه بنا ، ورأت النساء الخطر نازلا بهن فترجلن صائحات : الأمان ! الأمان ! فعرف غصوب من أصواتهن أنهن نساء فى زى فرسان ، وعلت وجهه إشراقة الفرح ، وقال لأصحابه : كفوا عن الأذى ، وسوقوهم جميعاً أسرى ، ولما رأيت هذه الحال أبعدت فى الصحراء ، وكان الليل قد أرخى سدوله ، وجعلت أرميهم بالنبال حتى أصبت منهم

عدداً من الرجال ، فترجل غصوب وجرى نحوى يحاول أن يقتلنى بنباله ، ففررت من وجهه وما لحقنى ، وقد جد فى طلبى ، ولما اختفيت منه فى الظلام رجع إلى أصحابه ، ولكن نباله أصابتنى بهذه الجروح التى سال منها دمى .

فقال عنترة : ارجع بنا إلى هذا الفارس حتى أروى سيفى من دمه

فقال هانئ بن مسعود : ولكن هذا الأمر يفوت علينا الوفاء بعهدنا الذى أبرمناه مع قباز بن كسرى . فقال : وماذا تريد أن نفعل يا هانئ ؟ ! فقال : لقد أعتق قباز هذا رقابنا على أن نجلسه على عرش أبيه كسرى ، وهذا أبوه قد قتلناه وهزمنا جيشه ،وما بقى إلا أن نقتفى آثار الجيش المهزوم حتى نرجع إلى قباز ، ولا نتركه حتى تدين له الفرس بالطاعة ، ويجعل الأسود ملكاً على العرب خلفاً لأخيه النعمان ، ثم نعود إلى ديارنا ، ونفعل بهذا الفارس ما نريد ، وبذلك نكون قد وفينا بالعهد ، وإلا نفعل هذا فقد نقضنا العهد ، وأصبحنا أحدوثة مذمة بين العرب ، فقال عنترة : لن أترك النساء يعبث بهن هؤلاء الأعداء ، وأرى أن نتبع بالفرسان جيش كسرى ،وتقوم أنت بما وعدنا ، أما أنا فإنى ذاهب فى مائة فارس إلى إنقاذ النساء ، ولن أوثر على هذا عملا مهما تكن عاقبته .

رجع شيبوب بعنترة فى مائة فارس من بنى عبس وعدنان وعامر وسار ليلة ونهارها ، وأشرفوا عليهم وقت الغروب ، فقال بعض أصحاب غصوب :

نرى خيلا مقبلة علينا وهى تتدفق تدفق السحاب ، ونخشى أن يصيبنا منها شر ، فقال : لا تفزعوا فسأكفيكم شرها ، واستعدوا للقتال بسيوفكم فهى أسرع فى الفتك بالأعداء .

التهبت نيران الحرب بين الفريقين ؛ أما عنترة وغصوب ففى جانب يتبارزان ، وأما أصحاب عنترة وأصحاب غصوب ففى جانب آخر يتقاتلون ، واستطاع فرسان عنترة أن يمزقوهم ، ويهزموهم ، ويطلقوا النساء وحماتهم من أيديهم سالمين فى وقت قصير ، ثم عادوا إلى عنترة وغصوب فوجدوا عنفاً فى المبارزة وشدة ، واستبسالا وحدة ، فأحاطوا غصوب وأحس هو خطراً لا يستطيع دفعه عن نفسه ، فانفلت بجواده وأرخى له العنان فى متاويه الصحراء ، وتبعه فرسان عنترة بجيادهم ، فلما أحاطوا به ورأى كثرتهم فوق ما يطيق باع للموت نفسه وعقد العزم على أن يقاتلهم وحده راضياً بمصيره فإما أبادهم ، وإما أكلته سيوفهم ، وإما حانت له فرصة فانفلت بجواده فراراً ! وكان قوى البأس ، رابط الجأش ، خبيراً بالقتال ، صبوراً على الشدة ، لا يعرف الخوف سبيلا إلى قلبه ، ونشط بسيفه فيهم حتى فرقهم وفروا من وجهه رهباً ، و وجد هو الفرصة سانحة للهرب منهم قبل أن يجتمعوا ويطبقوا عليه مرة ثانية ، وغاب عنهم فى حنايا القفار فلم يعرفوا له سبيلا ولا مفراًّ ، ورجعوا إلى عنترة مثخنين بجراحهم ، وفى عجب من شجاعته وشدة بطشه ، وكان عنترة قد أحس من نفسه ميلا إليه ، وإشفاقاً

عليه ، وإعجاباً به وبشجاعته ، وخشى أن يصيبه أصحابه بسوء ، فانطلق خلفهم ليأسره ، ويتبين حاله ، فإذا ما وجده جديراً بالإكرام وإطلاق سراحه خلى سبيله ، وإن كان ممن غرتهم قوتهم فعميت بصائرهم عن مبادئ الإنسانية والشرف طهر الأرض منه ، وجعله جثة تحت أطباق الثرى حتى لا يلوث بلحمه بطون طير أو حيوان ؛ وما لبث سائراً بجواده حتى طلع عليه أصحابه من غمار الصحراء راجعين ، فسألهم عما فعلوه بغصوب فقالوا : إنه مارد أو شيطان وقصوا قصتهم فزاد ما فى نفسه من الإشفاق عليه والإعجاب به ، وتعلقت آماله بهذا الفارس ، وودّ أن يلتقى به مهما يبذل فى سبيل ذلك من ثمن ، ثم رجعوا إلى مستقرهم عند نسائهم .

أما دريد بن الصمة فقد ذهب ببقية العرب إلى المدائن ليفى بعهده إلى قباز بعد قتل أبيه كسرى ، ولما كان من المدائن على مرأى العين قسم رجاله طوائف لتنزل ساحة القتال من كل جانب إذا ما وجد جند كسرى المهزومين شقوا عصا الطاعة على قباز ، والتفوا حول أخيه أنو شروان أو أحد من رجالات دولته الطامعين فى ملكه ، وكان إياس بن قبيصة قد انحاز إلى أنو شروان ، وجعل جنده من بنى طى وغيرهم من العرب يساعدونه فى أن يخلف أباه على ملكه ، وأفهمهم أنه أحق بالملك من أخيه قباز ، لأن قباز هذا هو الذى احتال لموت أبيه وهزيمة جيشه مستعيناً بهؤلاء العرب الذين أطلقهم وأكرمهم حتى يخلص الملك له ، ولكن عمل إياس هذا لم

يكن مقبولا لدى رجالات الدولة وجمهرة الأمة ؛ ولما علم قباز بذلك بادر بالقبض على أخيه أنو شروان وحبسه ، وهب كثير ممن يحبونه ويحبون أن يخلف أباه إلى معونته ، والوقوف فى وجه إياس ومن كان من حزبه .

ولما وصل دريد بطوائف جيشه ، ووجد القتال ناشباً بين إياس ومعارضيه من رجال الفرس ، وكان قباز قد تسلل من باب السر إلى دريد وطوائفه ، وأعلمهم بما كان من إياس ومعارضة الجمهور له ، فخاض بطوائفه غمرات هذا القتال الناشب ، وكان الحكم الحاسم فى سيوفهم ، فكسروا شوكة إياس ومناصريه ، وأرغموهم على أن يلقوا أزمة الطاعة بيد قباز ، وسلم له بذلك ملك أبيه ، ودان له جميع الحاضرين من الجنود والقادة من فرس وعرب ، وكان لذلك فرحة شاملة أعلنتها ألحان الموسيقى ، ودق الطبول ، ونشر الأعلام ، وعبارات التهانئ فى أنحاء المدينة وغيرها لأن قباز كان معروفاً بالعدل والاستقامة ، ومحبة الرعية ، والسهر على مصالحها ورفاهيتها ، وأهدى إليه الأسود أخو النعمان جواد أبيه كسرى ، وكان هانئ قد غنمه فى معركة القتال بعد موت أبيه ، وأقاموا معه ثلاثة أيام ، وأخبروه بما حصل من عنترة ، وسبب تخلفه عن الحضور معهم ، ثم استأذنوا فى الرحيل إلى البيت الحرام ، فأذن لهم بعد أن جعل ولاية العرب للأسود أخى النعمان ، وبعد أن عاهدهم أن يكونوا له أنصاراً ، وأن يكون لهم مدى الحياة ، وودعهم فى حفاوة وتكريم .

٢

وكان شهر رجب المبارك قد قرب مولد هلاله ، وهو الشهر الذى تفد فيه القبائل لزيارة البيت الحرام ، فعزموا على أن يعكفوا فيه حتى ينتهى شهر موسمهم هذا ، وكان عنترة قد حضر فلبثوا آمنين ، وجعلت القبائل والعرب على عادتهم فى هذا الموسم يتعارفون ويتناشدون الشعر ويطوفون بالبيت ، ويقيمون الولائم ، ويحيون الأندية بالحديث والسمر .

وكانوا يقرأون القصائد المعلقة على أركان الكعبة ، فيعجبون بها ، ويغلون فى هذا الإعجاب ، فيومئون بالسجود لها ، وكان عنترة يود فى نفسه أن يكون له معلقة كغيره من الشعراء ؛ لأنه يجد نفسه فى قوة الشعر وبلاغته مثلهم أو يفوقهم ، ولكن الحياء من سادات العرب يمنعه من أن يبدى هذه الرغبة الملحة فى نفسه .

وذات يوم أقام الربيع وليمة فاخرة لأصحابه وخواصه ، ودعا إليها فيمن دعاهم عروة بن الورد ، ودار الحديث فى مجلسهم متناولا شعر العرب وفصاحته ، وأنشد عروة بعضاً من شعر عنترة ، وجعل يمدحه ، ويذكر ما لعنترة من شجاعة لا تدانيها شجاعة ، فغاظ هذا عمارة ولكنه أخفى عن القوم غيظه وقال : إن ابن عمنا عنترة جدير بكل ثناء وحمد ، ولكن

الذين بلغوا فينا غاية الشرف أصحاب المعلقات التى سجدنا لها ، ولو أن عنترة بلغ هذه المنزلة وكانت له معلقة نمشى إليها ، ونسجد أمامها لزالت عنه صفة العبودية ، وقال فينا العرب : عبيد بنى عبس يفوقون الموالى من غيرهم فى الفصاحة والشجاعة ، فامتعض عروة وقال : إن هذا يا عمارة هين على عنترة ، ولو أراده لنفسه لبلغ منه ما لم يبلغه غيره ، وأراد الربيع أن يغرى عنترة بأن يعلق له قصيدة ليشعل بذلك نيران الفتنة بينه وبين سادات العرب ، ويقضى عليه فيها فقال : إن ابن عمنا يا عروة فوق ما نقول من الفصاحة والشجاعة ، وإنه لأجدر من غيره فى أن تكون له معلقة ، ولو أراد ذلك وسعى إليه ساعدناه وإن كان فى ذلك حتفنا وهلاكنا .

نقل عروة هذا الحديث برمته إلى عنترة أمام عبلة ، فقال عنترة : لقد كان هذا الأمر يجول فى نفسى ، ولكنى كنت أحجم عنه حياء من سادات العرب ، وقد استعنت بالله ، وعزمت الآن على تنفيذه ، وسوف تجد لى معلقة يسجد لها العرب برغم أنف كل حقود مكابر ، ولاعون لى فى ذلك إلا الله وذلك الحسام .

وكان أسيد عم الملك قيس راويته وكاتب أشعاره فأنفذ إليه من أحضره ، واستقبله عنترة أكرم استقبال وأحفله ، وقص عليه ما قاله عروة ، ثم قال : وقد عزمت عزماً لا رجوع فيه على أن أعلق قصيدة من شعرى فى الكعبة يسجد لها العرب جميعهم ، فقال أسيد : إنك بهذا

العزم يا عنترة تثير فتنة عمياء بين قبائل العرب لا تبقى ولا تذر ، وأرى أن تعرض عن هذا الأمر، ولا تكلفنا من أجله ما لا طاقة لنا به ، فإن هذا الأمر لا يبلغه إلا من بلغ الذروة نسباً وحسباً ! فاغتاظت عبلة ، وقالت لعنترة : لا ترجع عن عزمك ، وقد حرمت عليك حتى تنفذه ، فرفع عنترة رأسه وقد أحمرت من الغضب عيناه وقال : لن يكون يا عبلة إلا ما أردت و إن أفنيت فى سبيله العرب ، والتفت إلى أسيد وقال : لا تلمنى فيما عزمت عليه ولا بد من أن أعلق فى الكعبة قصيدة من قصائدى ، فهات ما كتبته من شعرى لأختار منه ما أريد تعليقه . فأنفذ أسيد من أحضر إليه الصندوق الذى فيه القراطيس التى كتب فيها شعر عنترة ، فلما حضر جعل يقرأ عليه ما كتب حتى قرأ قصيدته التى أولها :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم

فنالت إعجابه و إعجاب عبلة ، وأمر بكتابتها بماء الذهب والفضة ، فلما كتبت لفها فى ثوب من الديباج وقام عنترة منتظراً اجتماع العرب فى موسم شهر رجب .

وذهب أسيد إلى قيس وأخبره بما عزم عليه عنترة ، فخاف عاقبته وأبدى رغبته فى صرف عنترة عن عزمه هذا فقال أسيد : لا تطلب فى ذلك المحال ، فإن عنترة لن يرجع عن عزمه هذا وإن أفنى العرب فى سبيله ، وأرى أن نعينه فيه ، فإن انتصر كان لنا فخر لا يدانيه فخر .

وذاع هذا الخبر ، ووجد عنترة من بعض الأبطال رغبة وتشجيعاً ، وأشار عليه دريد بن الصمة أن يعرض هذا الأمر على الشيخ عبد المطلب ، ليكون خير عون له ، لأنه مسموع الكلمة عند العرب .

ذهب عنترة ودريد فى جماعة من الأبطال إلى الشيخ عبد المطلب ، وسرد له دريد ما عزم عليه عنترة ، وطلب منه المعونة ، فصعب الأمر فى نفس الشيخ عبد المطلب ، وأبدى لهم خطورته ووخامة عاقبته وقال لهم إن من الخير للعرب جميعهم ترك هذا الأمر ، لأنه لا يجر إلا إلى الدمار والبوار ، فقال عنترة : قضى الأمر ولا بد منه ، فإما انفذته وإما هلكت دونه ، وما أريد منك الآن إلا أن تجمع العرب لأسمعهم قصيدتى ، فقال : لك ذلك يا بنى ، ومصيرك بيد الله .

جمع الشيخ عبد المطلب العرب وقام فيهم خطيباً ، وبين لهم أن الإنسان بمزاياه من الفصاحة والكرم والشجاعة وغيرها من الفضائل أما النسب وحده فلا يرفع خاملا ولا جباناً ، وإن من قصر به عمله لا يسرع به نسبه ، وإن عنترة قد عرف بينكم بالشجاعة والفروسية كما عرف بالفصاحة البالغة ، وقد عزم على أن يعلق قصيدة له فى الكعبة ، ليكون كغيره ممن سبقه من الشعراء ، وليعلن بين قبائل العرب قاصيها ودانيها مبلغ فصاحته ، ويكون لها فخر نبوغه فى الشعر وتفوقه ، كما كان لها من قبل فخر بطولته وقوته ، ولكن بعض القبائل أبت على عنترة أن يعلق قصيدته

معللة رأيها هذا بأن شعراء ها الذين لهم معلقات من أكرم البيوتات فى العرب كامرئ القيس ؛ أما عنترة فهو عبد لا حسب له ولا نسب ، ولا ينبغى أن يسوى بين الأحرار والعبيد ، وما صرفهم عن رأيهم هذا أن وقف عبد المطلب فيهم خطيباً ، وأرشدهم إلى أن يكون اختيار الشعر الذى يعلق على الكعبة راجعاً إلى منزلته من البلاغة بصرف النظر عن قائله ، فالشعر الذى فاق غيره جدير أن يعلق على الكعبة مهما يكن صائغه ، وأصروا على رأيهم وأنذروا العرب حرباً وخيمة العاقبة ، فبرز إليهم عنترة على جواده ، وأعلنها كلمة حق مدوية : من قصر به عمله لم يسرع به نسبه ، وقد ملأت سمع الدنيا بشعر له قوته وطلاوته ، وإن أبى شداد العبسى ، وأمى زبيبة من بيت كريم حبشى ، فإن كنتم تريدون حقن الدماء فاتركوا العناء والتكبر ، ولا تطلبوا علواً فى الأرض بالباطل ، فقد خلق الناس أحراراً ، وجعلوا فى الحق على سواء ، وقد أصررت على أن أكون مثل غيرى ولا مفر من تعليق قصيدتى برغم أنف كل معاند ، وإنى قاتل من يصدنى .

لم يثنهم هذا القول عما يريدون ، وتقدم إليه فرسان القبائل وبارزهم جميعهم وقهرهم على بكرة أبيهم فارساً بعد فارس فى أيام متواليات .

وفى صباح يوم ركب عنترة جواده ليذهب إلى المبارزة ، فأشار عليه

أصحابه أن يستريح ، وهم جديرون بتحقيق إرادته ، فقال لهم : استريحوا أنتم واستعدوا لمعونتى إذا رأيتموهم غضبوا وثاروا وهجموا علىّ جملة ، فالكثرة مجتمعة تغلب الشجاعة ، ثم سبقهم إلى الميدان ونادى : هل من مبارز ؟ هل من راغب أن تسيل نفسه على صفحات هذا السيف ؟ ولكن الخصوم وفيهم بنو قحطان زعماء المعارضة انفلتوا بسيوفهم ، وأقبلوا عليه أسراباً كأسراب القطا ، فلما رأى ذلك أصحاب عنترة هبوا سراعاً بأقوامهم ، وخاضوا المعركة ليكشفوا عن عنترة ما أحاط به من بلاء وخطر ، وصلصلت السيوف ، وهوت الرءوس ، وتصاعدت الأرواح ، وبات السيف يفصل بين الفريقين حتى طلعت عليهم الشمس ونار الحرب مشتعلة ؛ فذهب إليهم عبد المطلب فى جماعة من سادات الحرم ، يمشى الخدم بين أيديهم حاملين الأصنام ، وشقوا تلك الجموع المشتبكة ، ونادى فيهم قائلا : مالى أراكم على هذه الحال الشنعاء والفتنة العمياء ؟ لقد أزعجتم الأرباب التى تعبدونها لتقربكم إلى الله زلفى ، وأغضبتم رب السموات العلى ، وإن لم ترجعوا عن هذا العدوان الأليم ، والخلاف الظالم الأثيم — فسيحل عليكم غضب الرب العظيم ، ومن يحلل عليه غضبه فقد هوى ، فإما تصالحتم وأمن بعضكم بعضاً ، وإما رحلتم إلى أرض غير هذه الأرض التى جعلها الله مثابة للناس وأمناً . فما ردهم إلى الصواب ما سمعوا من تلك الموعظة الحسنة ، وارتقبوا الصباح لاستئناف المبارزة أو القتال .

وكان عنترة ورجاله قد أصابوا الأعداء بكثير من العنت والإعياء فباتوا ليلتهم يتشاكون .

وفى الغداة قال عنترة لدريد : هل لك أن تعرف ما يريده القوم من موقفهم هذا ؟ وهل هم عازمون على المبارزة أو إشعال نار الحرب عامة يشترك فيها جميعهم ؟ فقال دريد : سأعرف ذلك ؛ وأمر دثار بن روق أن يخرج إليهم ويدعوهم إلى المبارزة ، فبرز إليه فارس وجال بفرسه فى الساحة جولة سريعة أدهشت الناظرين ، ثم وقف بجواده أمام دثار ، فإذا به زرىّ الهيئة ، طويل القامة ، علا الصدأ درعه ، وخفت بريق سيفه ، فقال : إنى رجل لا خبرة لى بالقتال وقد خرجت إليك على سبيل التجربة والدربة ، فاحرص على أخيك أن تقتله ، فما أنا بجاد فى مبارزتى . فقال له : لك ما شئت ، واحذر أن تكون سبباً فى هلاكك ، واعلم بأن الأجل إن حضر فما للعبد منه مفر ؛ وبدأ العراك فما لبث هذا الفارس أن أطبق على دثار وأمسكه بيديه ، وأسلمه إلى جماعة من العرب أعدها من ورائه لتأخذ منه الأسرى ، وكذلك فعل بمن خرج إليه من قوم عنترة حتى أسر كثيراً ، منهم مازن ، وحجار ، وعامر ، فصار الناس من الطائفتين فى عجب ودهشة من هذا الفارس الذى لا يدل مظهره على ما يمتاز به من شجاعة نادرة ، وقال عنترة : من أين هذا الفارس الذى ثبت أقدام بنى قحطان ، وأرجع إليهم طمعهم فى قتالنا بعد أن استيئسوا وأيقنوا أنهم قد غلبوا ؟

فقال دريد : تلك فطرة الزمن ، لا يدع المعافى فى أمن بعافيته ، ولا يترك المكروب فى شدة من كربته ، وقد أصبح لديهم من الأسرى من يتخذونهم فدية لأسراهم ، وأصبحوا بذلك كأنهم لم يغلبوا ، وعاد الأمر بيننا وبينهم كأول ما بدأ ، وأضاع هذا الفارس جهادك ، وضيع ما أحرزناه من نصر مبين . فقال عنترة : لو سبقت إلى هذا الفارس وكنت أول من لقيه لقطعت عنقه ، أو أسرته ، وجعلت بنى قحطان على حالهم من اليأس والهزيمة فقال دريد : ما كنا نظن أن فيهم فارساً يجرؤ على النزال بعد ما حل بهم هذا النكال .

انقضى النهار وسكن كل فى مأواه ، وهؤلاء بنو قحطان غارقون فى فرحة من نصر بعد يأس قاتل ، وهؤلاء بنو عبس وحلفاؤهم فى غمّ من تبدل الحال ، وبات عنترة يرتقب الصباح فى غيظ وقلق .

وأشرقت شمس الغد على جنود ملئت بهم الأرض ، وتحفزوا لقتال ينذر بشدته وثقل وطأته ، فأسرع عنترة إلى الساحة ، مترقباً هذا الفارس يخرج لمبارزته ، وما لبث أن جال جولته حتى جاءه هذا الفارس فى زيه وسلاحه ودرعه ، وشخصت إليهما الأبصار ، وأحاطت بهما الظنون والأوهام ، وارتبط مصير الطائفتين بما يكون من أمرهما ، فقال عنترة له : من تكون من بنى قحطان ؟ ومتى جئت إليهم فى هذا المكان ؟ وماذا دار بخلدك حتى ألقيت إلى التهلكة بنفسك ؟ فقال الفارس : ألست فارس بنى عبس

عنترة وغصوب يتبارزان

الذى فرضت على العرب نفسك ؟ وأردت أن ترغمهم على تعليق قصيدتك فقال : بلى ورب الكعبة ؛ وسأعلق قصيدتى على الرغم منك وممن يشايعك ويناصرك ، وإن كنتم ملء الفضاء ، فقال الفارس : ما أسرع ما نسيت فعلى بكم ! ! أنا الفارس الذى أخذ عيالكم وأموالكم وأنتم وافدون إلى بلاد العجم ، ولولا أنك لحقتنى بمن معك من فرسان لفزت بما أخذت من مال وعيال ، فقال عنترة : إذن ، أنت الفارس غصوب ، الذى أخفاه عنى ظلام الليل وهو هارب مغلوب . فقال : نعم ، أنا غصوب ، واحذر أن يجاوز لسانك حد الإحسان فقد جئتك اليوم فى هذا العلن ، لأسقط عليك كسفاً من البلايا والمحن ، جزاء بما أصبتمونى من جروح كادت تقضى علىّ فى أقصر زمن ، فقال عنترة : لقد كنا على يقين أنك لست ناجياً منها ، وكنت قد أعجبت بشجاعتك ، فعولت على أن ألحقك لأحميك من رجالى إبقاء عليك . وضنَّامنى أن تضيع بقتلك هذه الفروسية التى طربت لها ، ولكن ظلام الليل حال بينى وبين ما كنت أبتغيه فيك ، والحمد لله الذى حقق أمنيتى ونجاك ، فهل لك أن تخبرنى كيف نجوت من هذه الجروح التى ظننا أنك منها غير ناج ، وترك هذا الظن من أجلك فى نفوسنا ألماً وأسفاً ؟ فقال غصوب : فررت منكم مثخناً بجروحى ، تائهاً فى القفار ، لا أدرى لى وجهة أولّيها ، وكان قد بلغ بى الألم والضعف مبلغاً لا أستطيع معه مواصلة السير ، فعثرت بجماعة من العرب فنزلت ضيفاً

عليهم ، فآوونى وعالجونى حتى برئت من جروحى ؛ ولما حان موسم الحج ركبت معهم إلى البيت الحرام لعلى ألتقى بك فأجازيك بما فعلت ، وكنت فى حيرة من أمرى ، كيف أفارق هؤلاء العرب الذين آوونى وعالجونى دون أن أجزيهم بما قدموا لى من إيواء وإكرام ؟ ! فوجدت هذه الحرب قائمة ، ووجدت الفرصة سانحة لخوض غمارها عسى أن أغنم منها من المال ما أقدمه هدية لهم جزاء بما أكرموا مقامى عندهم فى الحال التى كنت فيها مشرفاً على الفناء ، وأما نسبى وحسبى فذلك موضع ؛ لا أستسيغفيه أن أذكر شيئاً عنهما ، إذ لست أبغى من الانتساب إلى أحد دفع ضرٍ عنى ، وحسبى ونسبى الآن سيفى ورمحى وجوادى ، فدع عنك كثرة الكلام ، وليس بينى وبينك الآن إلا حد الحسام .

وتحرك عنترة لمقاتلته وإن شيئاً خفياً فى نفسه يقيد يديه ويكبت ثورته ويطفىء جرأته ، ويزداد هذا الشيء الخفى أثراً فيه كلما وقع نظره عليه ، ولكن غصوباً هذا قد بلغ الذروة فى القتال ، ولا بد أن يصيب من عنترة مقتلا إن هو أهمل أو تهاون ، وعنترة لا يريد أن يقتله لأن ذلك الشيء الخفى فى نفسه يمنعه ، فقصر قتاله على أن يحمى نفسه ويجهد خصمه فلا يمكنه من إصابته ، كما لا يمكن هو سيفه أو رمحه من إصابته ، وإن امتد بينهما زمن المبارزة ، وإن قال الناس : إن عنترة لم يستطع أن يغلبه ، وقد بلغ القتال بينهما أشده ، ولما أدبر النهار أرجئ القتال إلى الغداة ،

وقد قال عنترة لغصوب : لولا أنى أحس فى نفسى شيئاً يعوقنى عن الإجهاز عليك ما بقيت فى يدى ساعة من النهار ، وفى الغداة يفعل الله ما يشاء .

وكان غصوب هذا ابن عنترة من غمرة ، وكان عنترة قد لقيها وحاربها وخلا بها ، فلما بدا حملها أخبرت أباها فكتم أمرها ، ولما دنا مخاضها خرجت خفية إلى واد من الأودية ، وهناك وضعت ابنها غصوباً ، ولبثت هناك حتى قويت وذهبت عنها أمارات الوضع ، ثم رجعت به تحمله ، وسألها أقرباؤها عنه فقالت : أبعدت فى طلب الصيد والقنص فرأيت هذا فى فم أسدة راجعة به إلى أشبالها فقتلتها وخلصته من فمها وجئت به أربيه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ، فوقع هذا القول من نفوسهم موقع الصدق ، لأنها معروفة بينهم بالنخوة والبطولة وكراهية الرجال ، ثم وكلته إلى مربية تقوم بشئونه تحت إشرافها ورعايتها ، وكانت تظهر له من العطف والمحبة ما تبديه الأم لوحيدها الذى وهب لها بعد عقم طويل ، وكان أسود اللون ، واسع الصدر ، متوقد العينين ، أشبه شيء بأبيه عنترة ، وقد أودعته فروسيتها وخبرتها فى القتال ، وأكثرت من تدريبه على ملاقاة الأبطال حتى بلغ الذروة فى الحرب والفروسية ، وحتى وجد أبوه عنترة فيه منهما ما لم يجده فى غيره من الفرسان ، وكان غصوب يسألها عن أبيه وأمه فتقول : ما عرفت لك أباً ولا أماً ولكنى خلصتك من فم لباة ذاهبة بك إلى أشبالها ، وقد ملأ حبك قلبى فكفلتك كأنك ابنى ، وعلمتك الحرب

ودربتك على القتال حتى أصبحت فى الفروسية لا يشق لك غبار .

أما سبب مجيئه إلى أرض الحجاز فهو أنه قد أحب فتاة من بنات الحى ولما خطبها من أبيها طلب إليه أن تلحقه غمرة سيدته بنسبها لأنه لا يرضى أن يزوجها ممن لا حسب له ولا نسب ، فجلس غصوب إليها ، وجعل يحدثها فى شئون تسرها ، ثم لوى حديثه إلى مسألة زواجه من تلك الفتاة التى يحبها وطلب إليها أن تتبناه وتلحقه بنسبها حتى يتم زواجه منها ، فقالت : لو كشف لك ما فى صدرى لوجدتك أحب إلىّ من نفسى ، ومحط أملى فى حياتى ، ولكن كيف أتبناك وأضمن سلامتى من القيل والقال ؟ إن العرب سيتهموننى إن تبنيتك بالفاحشة والإثم العظيم ، وسيقولون : لقد جئت بك من سفاح ، وقد كتمت أمرك عنهم هذه المدة المديدة التى كفلتك فيها وربيتك هذه التربية الكريمة ؛ وإذا شاع ذلك بينهم تمردوا وخرجوا عن طاعتى ، وجعلوا الملك لبنى عمى ؛ فأمسك عن قولك هذا فدونه ضرب الرقاب . فخرج غاضباً إلى أصحابه وحكى لهم قصته وقال : سأغادر العرب ولا أساكنهم ولا أعاشرهم وسأذهب إلى مدائن كسرى ، وهناك أكسب رزقى بسيفى ورمحى ، فقد كرهت أن أعيش بين قوم لا يعرفون لى نسباً وحسباً . فقال أصحابه : ونحن رفقاؤك فى رحلتك ، وأصحابك فى السراء والضراء ؛ وكانوا خمسين فارساً أعزب ، وهم الذين أسروا النساء من شيبوب ثم لحق بهم عنترة واستخلصهن من أيديهم بعد أن قتلهم أصحابه ، ثم فر

غصوب فى الظلام مثخناً بجراحه إلى غير وجهة فى البيداء ، حتى نزل على جماعة من العرب وعالجوه إلى أن برئ ، وصحبهم إلى البيت الحرام ، فوجد الحرب قائمة ، ووجد عنترة قد أذل بنى قحطان ، فتصدى غصوب له ، وكان بينهما ما كان فى اليوم الأول .

قلق بنو عبس واضطربوا إذ رأوا من عنترة تقصيراً أو عجزاً فى مبارزة غصوب ، وظنوا أن خاتمة حياته فى يد هذا الفارس الذى لم يستطع عنترة أن يظهر عليه فى هذا اليوم ، وبلغه قيس أن يكف عن رأيه فى الاستمساك بتعليق قصيدته ، وأن يرحلوا إلى أوطانهم سالمين وكفاهم من هذا التقصير أو العجز فى التغلب على غصوب ما رأوه فى اليوم الأول .

أما الربيع وعمارة ومن على شاكلتهما ممن يكرهون عنترة ويحسدونه فكانوا فى فرح عميم ، وتمنوا أن يقهره هذا الفارس بقتله أو أسره ؛ فقال عنترة : لقد بلبلت الهواجس أفكار قيس وظن بى ظن العجز أو القصور عن التغلب على غصوب . وليعلم كما تعلم العرب جميعهم أنى لو أردت قتله ما لبث فى يدى طويلا ، ولقد تمكنت هذا اليوم من قتله غير مرة ولكن شيئاً فى نفسى كان يحول بينى وبين قتله ، ولا أدرى لهذا الشىء سبباً ، وما أحببت أن أعجل بأسره حتى أقف على مبلغ فروسيته وشجاعته ، وما دام قد ساورهم الشك فى أمرى وذهبت بهم الظنون بى هذا المذهب ، فلن أمهله حتى الصباح . وما هى إلا جولة أجولها حتى تروه فى يدى. فقال هانئ :

إن هذا حق ؛ فقد رأيته يقع تحت سيفك كثيراً ، ولكنك أغفلته ، وكان ذلك مثار عجبي منك ، وأرى أن تخرس الألسنة التي امتدت إليك وأن تعجل بقتله . فقال عنترة : لك ذلك ، ولن ألقاه غداً إلا بغير سلاح.

بات القوم يتقلبون من الخوف مشفقين مما عسى أن يلقوه من هزيمة عنترة وانتصار غصوب عليه، وفى الصباح هب عنترة من نومه ومظاهر الحزن والألم بادية على وجهه ، ولما سئل عن حاله قال : رأيت فى منامى ما شغل بالى ، وجعلنى فى ألم وحيرة؛ فسأله دريد : وماذا رأيت فى منامك يا حامية بنى عبس ؟ ! فقال: رأيتنى كأنى أبارز غصوبـًا هذا وكأنى ضربته بسيفى ثلاث ضربات فما أثرت فيه شيئاً ، وارتد حسامى إلىّ باكياً ، فحنقت عليه وهممت أن أكسره ، فخاطبنى بلسان طلق لا يتلعثم : لا تكسرنى فتندم ! واحذر أن تصيب هذا الفارس بسوء ، فهو عبسى لحماً ودماً ، ولا تعجب منى إن أنا لم أجرح جسمه ، فإنى لا أسفك دم عبسى ، ثم طار عن عينى النوم، واستيقظت كما ترون قلقاً آسفاً ، لأنى فى مخافة من هذه الرؤيا ، فقالوا : لا ينبئك عن تأويل هذه الرؤيا إلا حكيم عالم ، ورأينا ألا تبارز هذا الغلام ومعك الحسام ، وأن تقاتله بالحراب لتكون فى مأمن من رؤياك .

ولما اصطفت طوائف العرب من الجانبين اندفع عنترة إلى الساحة عارياً من الدروع والسيف ومعه ثلاث حراب ، فقال غصوب : لقد هانت

على هذا العبد نفسه ، إذ برز إلى القتال بدون وقاية ، ولكن سأنصفه من نفسى ، وأخرج إليه على الحال التى خرج عليها لقتالى لأسوى بينى وبينه وسيكون مصيره حديث التاريخ فى كل جيل ، ثم بدأت المعركة بينهما واستمرت طويلا على أشدها حتى تكسرت الحراب فى أيديهما وأصبحا من غير سلاح ، فترجلا وتحول القتال بينهما إلى مصارعة ، وقال الناس : قد دنا مصير الفارسين ، وبعد قليل يتبين أشجعهما ، وتنفرج الشدة عن فوز لأحدهما ، وأرهق عنترة غصوباً حتى بهر أنفاسه وأضعف قوته ، ثم ضمه إلى صدره ضمة كادت تكسر عظامه ، ثم رفعه إلى السماء وهمّ أن يضرب به الأرض ضربة قاضية ، ولكن ذلك الشيء الذى فى نفسه ، والذى يدفعه إلى العطف عليه حال دون ما همّ أن يفعله ، فوضعه على الأرض وضعاً خفيفاً هيناً ؛ فأقبل شيبوب وحبسه فى قيود الأسر وساقه إلى قومه ، ولم يفهم الناس لماذا كان عنترة على غصوب هينا ، كما لم يفهم هو السر فى أنه حباه بعطفه وحماه من التلف . وكان النهار قد ولىّ فعاد إلى قومه والأجواء تدوى فيها صيحات الفرح من بنى عبس ، ومظاهر الكآبة والحسرة بادية على أعدائهم من بنى قحطان ، وعمارة وصحبه يتميزون غيظاً وحسرة ، وعاد إلى قيس سروره بعنترة واعتماده عليه، فأرسل إليه وهنأه واعتذر عما كان قد أشار به من ترك القتال والنزوح بالعرب والأهل إلى الأوطان ، وباتت طوائف قحطان فى همّ وحيرة ، ودار الحديث بينهم فيما

يفعلون ، وانتهى رأيهم إلى أن يحيلوا ما لديهم من الأسرى فداء لغصوب .

وتقدمت مشايخ قحطان إلى عنترة بهذا الرأى الذى بيتوه بينهم ، فقال عنترة : هذا حسن إذا كنت غير قادر على إرجاعهم منكم بسيفى بعد أن أشتت شملكم وأجعلكم شذَر مذَر ؛ فقالوا : وما ذنب هذا الشاب الحدث الذى عرفته بشجاعته وقوته وخبرته ، والذى خاض المعركة لينصفنا منك بعد أن رآنا فى حالة تستوجب معونة كل شجاع كريم ؟ ! فقال : اطمئنوا عليه وعلى جميع من بأيدينا من أسراكم فإنى لن أقتلهم ولن أسىء عشرتهم ، ولكنى لن أفك رقابهم حتى تذعنوا لرأيى ، وتؤمنوا بمعلقتى ، وتطمئنوا إلى وضعها على الكعبة رمز تفوق ومستقر خلود ، وتطهروا صدوركم من الجحود بالحق وبالمساواة بين الناس ، فاذهبوا إلى قومكم وبلغوهم ذلك ، وإلا فلن تجدوا منى إلا هلاكاً وتشريداً . وسيكون ما أردته لمعلقتى ، وسواء علينا أرضيتم أم غضبتم .

٣

فلما رجعوا إلى قومهم ، وأذاعوا ما قاله عنترة بينهم هاجوا مضطربين لا يدرون ما يفعلون : فاستعد عنترة لقتالهم ؛ وقبل أن يعلنها حرباً عليهم رأوا غبرة جيش فى الصحراء يشق طريقه إليهم ، فامتدت إليه أعناق

الفئتين حتى بان لهم نحو ألف فارس كأنهم أسود غاب متوثبة يقدمهم بطل ملثم ، طويل القامة ، طويل العنق ، تتوقد عيناه من تحت لثامه ، قد تحصن بدرع سابغة ، واستوى على جواد مطهم ، تبدو عليه أمارات القوة وسرعة العدو ؛ وكان هؤلاء الفرسان من بنى قضاعة وفارسهم الذى يقدمهم غمرة أم عضوب بن عنترة .

وذلك أنها لما أبت أن تلحقه بنسبها خرج غاضباً من عندها لا يلوى على شيء وكان ما عرفت من أمره حتى أسره عنترة فحزنت على غيبته حزناً شديداً ، وجعلت تبكى عليه سراً ولبثت على تلك الحال حتى أغار عليها السودانيون فأفنوا رجالها ، واستولوا على ديارها[1] ، فلاذت بالفرار فى ظلام الليل ، ولحق بها من قومها نحو ألف فارس مخلفين وراءهم ديارهم وأموالهم ونساءهم يبغون مثلها النجاة بأنفسهم ، فلما قعدوا فى الصحراء وأمنوا أن يلحق بهم أحد من الأعداء أخذوا يندبون حالهم وما أصابهم من غدر الزمان وكيده ، وقالوا لغمرة : إلى أين أنت بنا ذاهبة ؟ ومن تقصدين من العرب ليخلصوا نساءنا وأموالنا من أيدى هؤلاء السودانيين الذين نزلوا علينا نزول البلاء ؟ فقالت : ليس لى نصير أبغى عنده المعونة ، ولهذا فقد عولت على أن أذهب إلى البيت الحرام ، وأعكف فيه حتى تزول عنى هذه المحنة أو يأتينى أجلى ، فمن كان منكم ذا مال ونساء وولد فليرجع إلى ملك السودان الذى أغار علينا ويلقى له زمام الطاعة ، ويطلب إليه الإقامة فى داره بين

(١) كان يحسب المؤلف أن أرض بن قضاعة تجاور بلاد السودان بلا احتجاز ، ناسيا أن بينهما بحر عظيم !

أهله وفى ظلال حكمه وأمنه ، ولا يتبعنى منكم إلا خفيف الظهر ممن ليس
له مال ولاولد، فرجع إلى الأوطان أصحاب الولد والمال وصحبها إلى مكة من لم
يمنعهم عن الهجرة مال أو ولد ، فلما قدمت إليها عرفها قبائل اليمن
المهزومون فخفوا إليها سراعاً فرحين ، لأنهم يرجون عندها المعونة والمؤازرة
كى تخلصهم من هذا الضيق الذى أحاط بهم ، وحكى لها شيوخهم
ما جرى لهم من عنترة ، وما وقع بينهم وبينه من قتال ومبارزة ، وأنهم أسروا
بعض رجاله كما قتل هو وأسر كثيراً من فرسانهم ، وفيهم غصوب الذى
نشأ فى كفالتك حتى صار بطلا مغواراً بعد حرب عجيبة دارت بينه وبين
عنترة ، وقالوا: لو تأخر قدومك إلينا قليلا لوجدتنا قد ألقينا له أزمة الطاعة
مخافة سيفه ورجاله ، فوعدتهم أن تنصرهم ببأسها ورجالها ، ثم شقت
سبيلها بينهم حتى كانت هى ورجالها فى ساحة القتال ، وقد أسرّتْ فى
نفسها أن تقيم فى بنى عبس بقية حياتها ، وفى رعاية ابنها غصوب وأبيه
عنترة . ودبرت لذلك أحكم خطة ناجحة .

وجدت عنترة يرتقب مبارزاً وإلا شن عليهم غارة تمزقهم ، فعرفته
ولكنه لم يعرفها ، وظنها فارساً ، وعجب أن جاءه يحاربه وليس وراءه إلا
قلة من الرجال ، وأرسلت إليه بعض رجالها يقولون : أمهلنا أيها الفارس إلى
غداة الغد كى نستريح من مشاق السفر ؛ وفى هذه الغداة يبرز إليك
رئيسنا فإن غلبته نزلنا نحن على رأيك وشايعناك على وضع معلقتك ،

وأبطلنا ذلك الخلاف القائم ؛ وإن غلبك رئيسنا نزلت أنت عن رأيك ،
وأغمدت السيوف ، وانصرفت تلك الطوائف إلى شئونها ، ووصت الرسل
إن سألهم عنها أن يخفوا أمرها وأن يقولوا : إن فارسنا من أعماق بلاد اليمن ،
يقال له مبادر بن جبار ، فأمهلهم عنترة ، ولما سألهم عن فارسهم قالوا :
إنه مبادر بن جبار فاته موسم الزيارة لبعد بلاده عن البيت الحرام ، وقد
وعد بنى قحطان أن يبرز إليك ، ويخلص أسراهم وينصرهم عليك معتمداً
على شجاعته وقوته وثقته بنفسه ، وأنه ما دخل معركة حامية إلا كان
النصر حليفاً له ، فقال لهم ؛ ارجعوا إلى فارسكم وأخبروه أن يستريح حتى
الصباح وإذ ذاك سأريه ورجاله ما لم يخطر لهم على بال ، فلما أخبروها
طلبت من بنى قحطان أن يحضروا الأسرى من بنى عبس بين يديها ،
وقالت : إن وجدتهم من ذوى السيادة فى العرب ، عرضت عليهم أن
نعتقهم على أن يعتق أصحابهم أسراكم ومعهم غصوب ، وحينئذ أطلب
مبارزة عنترة فإذا أسرته لم يكن لنا عندهم أسير يضطرنا إلى جعل عنترة
فدية له ، لأننى عازمة على قتله أو أسره بحيث لا تكون له رجعة إلى
أصحابه ، ومن أجل هذا أخفيت اسمى عنه لكيلا يتخلف عن مبارزتى
أنفة واستكبارا ، وأبشروا بالخير فقد أسرته من قبل ، ولكنه احتال وهرب ،
فصدقوها وأحضروا لها الأسرى ، ولما جالت بنظراتها فيهم قالت : ليس
فيكم إلا سيد وابن سيد ، وقد رأيت ألا نذل بالأسر سادات العرب

ونبلاءهم سواء أكانوا من قومكم أم من قوم بنى قحطان ، ولهذا رغبت فى
أن نخلى سبيلكم على أن يطلق أصحابكم سراح الأسرى من خصومهم ،
وإلا فلا مبرر للإبقاء عليكم ، وقد أمهلتكم إلى الصباح وسأنظر ماذا أنتم
مختارون ، ثم أمرت رجالها أن يحفظوهم تحت حراستهم إلى صباح الغد .
وفى منتصف الليل والسكون شامل والقوم غارقون فى نومهم أحضرت كبراء
رجالها الذين تعول عليهم فى كتمان سرها ومعونتها فيما تريد أن تفعله ، وقالت
لهم : ما جمعتكم الآن إلا لأمر عظيم أودعته مكنون سرى مدة حياتى ، وقد
أردت أن أطلعكم عليه ، وعلى ما استقر عليه رأيى فيه ، راجية منكم المعونة
بقدر ما منحتكم من حكمة وسداد رأى ؛ فقالوا : نحن لك فى الشدة والرخاء
ولن ننفض من حولك ما دام فينا نفس يتردد ، ولولا إعظامنا لك ما صحبناك
فتحدثى إلينا بما تريدين ، فقالت : إن غصوباً ابنى من عنترة الذى أسره
وقصت عليهم قصته ، ثم قالت : وقد أصبحت الآن طريدة غريبة ، وقد
جمعتكم لأطلعكم على سرى ، ولتعاونونى فى تدبير حيلة تجمعنى بابنى
غصوب وأبيه عنترة لأعيش فى كنفهما مدة حياتى ، فماذا ترون فى هذا ؟
فقالوا : قصة عجيبة ليس عليك غضاضة فيها ، وصبر جميل على كتمان
أمرك هذه المدة ، ولن يغمض لنا جفن هذه الليلة حتى نجمع بينك وبين
ابنك غصوب ، فأشيرى علينا بما تريدين ، فقالت : أن تعلموا بقية
رجالكم بهذا حتى يكونوا معكم فيما تفعلون ، ثم أن تذهبوا إلى الأسرى

وتطلعوهم على أمرى ، وتمنحوهم خيلهم ، وتسرحوهم إلى قومهم فى ظلام
هذا الليل ليقوموا عند قومهم بالعمل على إطلاق الأسرى الذين عندهم ،
وعلى أن أجتمع بابنى وأبيه ، وسيكون مقامنا جميعاً بين بنى عبس فى ظلال
الأمن والدعة وهناءة الحياة ، فقالوا : سيكون ما أردت فى عناية وحكمة
وقليل من الزمن ، وأى شىء نبتغيه أحسن من الإقامة فى جوار بنى عبس
ورعايتهم ، ثم انصرفوا سراعاً لتنفيذ ما أشارت به عليهم .

ولما أخبروا الأسرى بما حملوه إليهم من غمرة ، وعرفوا حقيقة أمرها وما
عزمت عليه فرحوا به ، وقال عامر بن الطفيل : كم فى الليالى من عجيب !
لقد حظى عنترة بفارس كالأسد تذل له الرقاب ، ويخضد شوكة كل
حاقد حسود ، ونجونا من ذل الأسر بهذه المرأة الكريمة التى نفحنا بها القدر
العادل ، وما كانت تخطر لنا على بال ، ثم تقلدوا أسلحتهم وركبوا خيلهم
وذهبوا إلى غمرة فشكروا لها صنيعها ووعدوها أن يحققوا لها رغبتها ، ثم
انصرفوا فى الظلام خفية إلى قومهم ، وكان عنترة فى تلك الليلة عميد
الحرس الذين وكل إليهم حراسة القوم وهم نائمون ، فلما رأوا جماعة الأسرى
مقبلين على خيلهم وفى أسلحتهم ، هب إليهم عنترة وسألهم : من أنتم أيها
القادمون ؟ عجلوا بالإجابة قبل أن تحل بكم موتة عاجلة : فقال عامر :
تمهل با أبا الفوارس ، فنحن أصحابك ورفقاؤك جئناك الآن بالبشرى فعرفه
عنترة وصحبه من صوته ، وقال : مرحباً بعامر وصحبه ، وفرحوا بخلاصهم من

الأسر فرحاً عظيما ، ثم سأله عنترة : كيف فررتم من أعدائكم فى ظلام هذا الليل ؟ فقص عليه كل شىء ، فقال : الحمد لله الذى خلصكم من أسركم وجمعنى بابنى وزوجى ، وهنا أدرك السر الذى كان يمنعه من قتل غصوب كلما تمكن منه فى أثناء مبارزته ، وتذكر قول السيف فى منامه : إنى لا أسفك دم عبسى .

وفى أثناء حديثهم هذا أقبلت غمرة ورجالها ، فهبوا للقاء هؤلاء القادمين ليقفوا على أمرهم ، ولكن غمرة ابتدرتهم قائلة : يا عنترة ، جاءتك غمرة أم ولدك غصوب ، راجية أن تكون هذه الليلة نهاية ما مسها من نصب ولغوب ، فقال : هى نهاية الشقوة ، وبدء السعادة ، ومولد الهناءة لابنى غصوب ، إذ عرف فيها أنه من أبوين ذوى حسب ونسب وشجاعة وكرم بعد أن غُمّ عليه أمر منبته . فقالت : أحب أن تجمعنى به الليلة ، فإن قلبى يحن إلى لقائه ، فأمر أخاه شيبوباً أن يخبره ويأتى به إلى أبويه ، فلما قدم إليه بهذه البشرى غضب على أمه لأنها أخفت عليه أمره ، وأفهمت العرب أنه لقيط دفعتها الرحمة به إلى كفالته وتربيته ، فقال شيبوب : ما كانت أمك تود أن تخفى أمرك ، وما أقدمت عليه إلا عن مقت وكراهية منها له ، وقد صانت سيادتها وكرامتها بهذا الإخفاء ، ولو أعلنت أمرك من أول نشأتك لانفض عنها رجالها ، ونبذها أهلها وقومها نبذ النواة ، ولم تكن حينئذ تستطيع غير ما فعلت ، أما الآن فلها من سيفك

وسيف أبيك ما يجعلها تعلن الحق فى شجاعة وجرأة ، وهكذا جعل شيبوب يخفف من حدة غضبه ويدافع عن أمه حتى ذهب عنه الغضب وسار معه فضمته أمه إلى صدرها وقبلته ، وضمه أبوه إلى صدره وقبله وقال له : الآن عرفت الشىء الذى كان يصرفنى عن قتلك كلما تمكنت منك فى أثناء المبارزة ، وقص عليهم رؤياه فى منامه ، ولما أشرق الصباح وانتشر هذا الخبر فى قومه وفدوا إليه يهنئونه ؛ أما عمارة فقد أظلمت الدنيا لهذا النبأ فى وجهه ، وفقد كل أمل كان يساوره وقال : لقد كتب علىّ البؤس والحزن حتى أدرج فى كفنى فعلىّ العفاء إلى يوم الجزاء .

أما بنو قحطان فقد استيقظوا من نومهم فى الصباح على الأمل الذى باتوا عليه ، وما أشد ما فزعوا وحزنوا إذ لم يجدوا غمرة والأسرى بينهم ، فظنوا أنها عجزت عن لقاء عنترة ، وأنها أخذت الأسرى لتقدمهم فدية لابنها غصوب ، وليتأكدوا من حقيقة الأمر أرسلوا جاسوساً إلى قوم عنترة ليعرف مبلغ هذا الظن من الحقيقة والواقع فربما كان أمرها على غير ما يظنون ، ولما رجع إليهم جاسوسهم بالأمر على حقيقته سقط فى أيديهم ، وأيقنوا أنهم مغلوبون ، وقالوا : ليس لنا سبيل الآن إلا إذعاننا لعنترة ، وتمجيد معلقته ، والرضا عن وضعها بالكعبة ، فنحن لم نقدر على محاربة عنترة وحده ، فكيف نقدر على محاربته وابنه يؤازره ، وهو لا يقل شجاعة ودربة فى القتال عن أبيه ؟! !

وبينما هم يموجون فى حيرتهم برز إليهم غصوب على جواده وقال : يا بنى قحطان ، قد بان لكم الآن أنى من أب وأم كريمين ، وأننى من بنى عدنان ، ولهم علىّ حق المؤازرة والتأييد ؛ وإنى أنذركم ضرب الرقاب إن لم تكفوا عن عنادكم لأبى ، وإن لم ترجعوا إلى الحق والاعتراف بما لمعلقة أبى من مكانة وخلود ، ووضعها على الكعبة مع بقية المعلقات ، فذلك حق قد عرفته كما آمنت به ، وليس عجيباً أن ترونى الآن مدافعاً عنه ، مجاهداً فى سبيله ؛ فقالوا : لقد فكرنا فى الأمر ، واتفقنا على أن نترك أباك يعلق معلقته كما يشاء ، وقد أغمدنا سيوفنا ، ونزلنا عن معارضتنا ، فبلّغ أباك هذا الرأى الذى أجمعنا عليه ، فلما ذهب إليه وأخبره فرح بنصره ، وأقام وليمة عامة دعا إليها أهل الحى جميعاً ، فطعموا وشربوا وسمروا ابتهاجاً بفوز عنترة العظيم .

وفى الصباح كان العرب مجتمعين حول الكعبة تحت رئاسة عبدالمطلب لسماع قصيدة عنترة التى أراد أن يعلقها على الكعبة فنادى عبد المطلب رجلا من فصحاء العرب يدعى وائل بن العاص ، وناوله إياها ، وأمر أن يقف على المنبر المعد لمثل هذا الموقف ويقرأها فى صوت جهورى ، وطلاقة لسان ، ويتلو على السامعين معلقة عنترة : وأولها :

هل غادر الشعراء من متردم ... أم هل عرفت الدار بعد توهم

ومنها :

لما رأيت القوم أقبل جمعهم ... يتذامرون كررت غير مذمم

يدعون عنتر والرماح كأنها ... أشطان بئر فى لبان الأدهم

ما زلت أرميهم بثغرة نحره ... ولبانه حتى تسربل بالدم

فازورّ من وقع القنا بلبانه ... وشكا إلىّ بعبرة وتحمحم

لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى ... ولكان لو عرف الكلام مكلمى

طرب العرب لها وقالوا : لقد بلغت من الفصاحة والقوة ما جعلها جديرة بالتعليق والخلود ، ثم انفرط عقد الجماعة وهمّ كلّ أن يذهب إلى خبائه .

٤

أما عبد المطلب فإنه أحضر ذا الخمار ودريد بن الصمة بين يديه ثم قال لدريد : هذا (مشيراً إلى ذى الخمار) زوج ابنتك وقد رأيت ما فعله بنا وكيف كان مصيره فاحكم فيه بما تشاء . فقال دريد : لقد ركب البغى فجار واعتدى ، ولم أكن لأعين ظالماً أبداً وأحكم عليه بشرع العرب ، فقال : لا بأس أن نأخذه ببعض ما يستحقه من القصاص ليكون عبرة لغيره ممن يغرهم بأسهم فيعتدون على الناس ، ثم أمر عشرة من عبيده فأركبوه حماراً وجعلوا يطوفون به بين الأحياء ، ويضربونه بالسياط قائلين : هذا جزاء من أراد هدم البيت ، وكان هانئٌ متزعماً تعذيبه لأنه يبغضه

ويتمنّى له كل شر ، ولما رجع به إلى عبد المطلب اعترض سبيله خمسون فارساً ، وهجموا على العبيد بسيوفهم ورماحهم فقتلوا منهم من قتلوه ، وهرب من أيديهم من كانت له بقية من العمر ، وفكوا ذا الخمار من أسره وأعطوه سلاحاً وقالوا له : اثأر لنفسك وشرفك ، فلن يرضى بما كنت فيه أحقرُ الناس وأذلهم . فهاج وماج واشتعل حماسة وشجاعة ، وعقد العزم على أن يثأر من هانئ لنفسه ، وكانت بينهما حرب اشترك فيها أعوانهما وأصيب فيها هانئ بضربة على عاتقه خر من أجلها متوجعاً من جرحه ، ثم فر ذو الخمار وأعوانه إلى القفار معتصمين بالعدو السريع وظلام الليل ، وحمل هانئ إلى خبائه .

وقال عبد المطلب : ما فعل هذا ودبره إلا دريد ليخلص ذا الخمار وظن هذا الظن عنترة أيضاً ، وأصبح القوم فى همّ وغمّ من أجل هانئ ، وأراد عنترة أن يختبر دريداً ليعرف حالته بالنسبة لهانئ بعد إصابته ، فبعث إليه يشاوره فى وليمة عامة عزم عنترة على إقامتها بمناسبة انتصاره على معارضيه ، فأنكر دريد عملية إقامة أية حفلة معللا ذلك بأنه لا ينبغى إقامة أية حفلة وهانئ على هذه الحالة الأليمة ، وقال : لن يقع ذو الخمار فى يدى إلا قتلته شر قتلة جزاء بما فعل بهانئ الذى أخلص فى معونته لنا وعرض نفسه لأخطر مواقف القتال من أجلنا فنى إقامة الولائم والأفراح الآن مظهر من مظاهر الشماتة فى هذا الوقت الذى أشرف هانئ فيه على الموت

من جراء جرحه ، ولا ينبغى أن نقابل إخلاصه ومعونته لنا بإغفاله وعدم الحزن من أجله ، وإنى أشهدك على أنى أبحث دم ذى الخمار لمن يقتله من غيرى ، فأضعفت هذه الإجابة ما فى نفس عنترة من اتهام دريد بأنه هو الذى أرسل الفرسان لتخليص ذى الخمار ، ثم رحل هو وقبائل اليمن إلى أوطانهم ، وجعل عنترةُ والبارزون من قومه يواسون هانئًا بزيارتهم له ، ووعدهم إياه بأخذ ثأره من ذى الخمار .

* * *

رأى عنترة فى عبلة حالا جديدة ، فقد أصابها وجوم ، وبدا عليها غمّ عميم ، فسألها عنترة عما بها ، فقالت : كيف لا أحزن وقد اصطفيتك لنفسى زوجاً ، مخالفة فى ذلك أبى وأهلى ثم لا أجد منك إلا جحوداً ونكراً ، إذ ابتليتنى بضربة قصمت ظهرى ، وأقضت مضجعى ، وحطت من قدرى ومنزلتى ، وجعلتنى معرة بين نساء العرب اللائى يقلن لى الآن : لقد سلاك عنترة ، وفقدت من نفسه منزلتك الأولى ، وإنى لن أستطيع صبراً على هذا ويحسن بك أن تردنى إلى أهلى لأكون بعيدة عن هذه الدار التى تثير فى نفسى الهمّ والغيرة ، ولتنفرد أنت بمن تحب من النساء ؛ وكان شيبوب حاضراً فقال : ما كنت أظن أنك تتجاهلين أو تغفلين عن فهم الوقائع وملابساتها ، وتضعين نفسك هذا الموضع الذى لا يليق إلا بجاهلة غافلة ! فما خطا عنترة خطوة واحدة فى سبيل غيرك ، ولكنها وقائع فاجأته فى

حروبه على غير إرادة من نفسه ، وما كان له فيها غير ما فعل ، ولم يكن يستطيع الآن أن ينكر ابنه ، وهو الذى ثار على العرب وأبيه شداد فى إنكارهم الانتساب إليه ، ولعل ما أنت فيه الآن من صنع الأعداء ووسوستهم حسداً من عند أنفسهم ، فلم يرُق هذا القول فى نفسها ، وقالت : ومن يصدق أنك تبدى معى خطأ لأخيك وتعيننى عليه ؟ ! لقد أسلمت وجهى إلى ربى ، وأسأله الصبر الجميل على ما أصابنى ، فجعل عنترة يرضيها بالقول حتى رضيت .

وصدق شيبوب فيما قال ، إذ كان السبب فى غضب عبلة وتغير أحوالها أن الربيع بن زياد أرسل ابنته المدللة إلى عبلة لتلقى فى روعها أن عنترة سلاها ورغب عنها ، وآثر عليها من يحب من نساء العرب وفتياتها ، فلما ذهبت إليها أخذتا تتحدثان فى شئون كثيرة حتى جاء ذكر عنترة وفوزه على معارضيه ، فقالت المدللة : لقد ذهبت أيام عنترة التى كانت تشرق بمحبته لك فقد سلاك الآن ونسيك ، وشغل عنك بمن يحب من النساء والفتيات ، فخجلت عبلة وقالت : لو ملك عنترة مائة امرأة ما سلانى وما نسينى ، وإن لم يكن زوجى فهو ابن عمى ، فصلتى به وثيقة ، وإعزازه إياى لا يستطاع جحوده ، وإن أردت أن أجعله عبداً يرعى الجمال ويقبل يدى ورجلى فعلت . فقالت المدللة : إنا نراه كثير التردد على غصوب ابنه وغمرة زوجه ولا يسكن إليك إلا بعد أن يمضى من الليل

أكثره ، ولو بقيت محبته لك كما كانت من قبل لأفنى أوقاته فى صحبتك والجلوس معك ، ولعلك نسيت الزمن الأول الذى كان لا يسكن فيه إلا إليك ، وجعلت توسوس فى صدرها حتى تغير حالها ، وامتلأت نفسها حزناً ،

واتفق قيس وعنترة على الرحيل إلى الديار ، ولما شاور عنترة زوجه غمرة فى ذلك قالت : لن أغادر البيت الحرام قبل أن أسترد مالى وإمرتى فى ديارى من ملك السودان الذى طردنى من بلادى ، وإذا كان ذلك الطرد سبباً لنعمة لقائى بك واجتماع ابنى غصوب بأبيه فلن أبرح هذا المكان حتى يُتم الله نعمتى برد مالى وبلادى من أيدى الغاصبين ، فقال عنترة : ما دام الأمر كما تقولين فلا تبرحى مقامك هذا ومعك ابنك غصوب حتى أعود إليك ، وأسترد بحد السيف ما غصبه منك الغاصبون ؛ ثم ودعهما ورحل مع قومه إلى أوطانهم . وأرادت عبلة أن تخفف من ثقل غيرتها فأبت فى أثناء رحيلها أن يقوم العبيد بشئون خدمتها ، وأصرت أن يقوم عنترة نفسه بها ، فنزل على رغبتها وتولى هو أمرها حتى وصلوا إلى الديار ، وأقيمت الولائم والأفراح .

وكان الربيع وعمارة قد اتفقا على تدبير حيلة تقتل عنترة بيد عبلة ، فأعطى الربيع ابنته المدللة سمًّا . وأمرها أن تضعه فى كأس الشراب الذى تقدمه عبلة لعنترة حتى يكون قتله بيدها ، وبذلك نستريح من شره ، ولا يلحقنا أمام الناس إثمه وذنبه ، فلما اجتمعت المدللة بعبلة فى حفلة

الشراب قالت : أين ما كنت تقولينه من إذلال عنترة وتقبيله يديك ورجليك ، وجعلت من ذلك دليلاوشاهداً على أنه ما سلاك ؟! فقالت : سأريك ذلك الآن ، ثم أرسلت عبلة خميسة إلى عنترة ، فلما حضر وقف أمام السرادق قائلا : ماذا تريدين يا ابنة مالك ؟ أأنتن فى حاجة إلى طعام أو شراب ؟ وكان فى صحبته أخوه شيبوب . فقالت : لسنا فى حاجة إلى شيء من ذلك ، ولكن بنات أعمامك طلبنك وما فيهن من تحتجب عنك فكلهن تربين بين يديك ، فدخل هو وأخوه شيبوب عليهن فوجدهن مشرقات الوجوه موردات الخدود ، فقمن إجلالا له ثم جلس هو وأخوه بينهن وناولته عبلة كأس الشراب وكانت المدللة قد وضعت فيه السم ، وقالت لعبلة : مرى عنترة أن ينشدنا شيئاً من شعره قبل أن يشرب كأسه ، فأنشدهن شعراً يفيض محبة لعبلة ، ولما انتهى منه قالت له : إن كنت تزعم أنك لاتزال تحبنى ، وأنك صادق فيما تنشد من الشعر فى الهيام بى فقبل قدمى ، ثم مدت رجلها إليه ، فنظر إليها نظرة وجوم وحيرة ، فقالت : لعلك عظمت علينا ، واستكبرت بعد أن وضعت معلقتك على الكعبة ، وسأعرف كيف أردك عبداً ترعى الجمال وتحتطب ، فلم يطق شيبوب صبراً على هذه الحال وقام ناهضاً إلى الكأس التى فى يد أخيه فألقاها على الأرض من يده ، وقال : كبرت كلمة تخرج من فم عبـــلة ؛ أما تستحيى أن تذل لذات قناع وقد عنت لهيبتك الملوك ، وخشيت بطشك السباع ؟ ! ! ثم

جذبه من يده ، ودفعه إلى خارج السرادق . وغضب عنترة غضبة كريمة وقال لأخيه : لا تذهب بى إلى الخباء وسر بنا إلى البيت الحرام ، فقد حرمت علىّ ديار عبلة حتى يأذن ربى ، ثم انفلتا مسرعين من ديارهما ، وسلك به شيبوب طريقاً لا يلحقهما فيه أحد حتى أشرفا على البيت الحرام من مكان به ماء ونبات ، فهمّا بالنزول فيه للراحة ، ولكن لاح لهم هودج فى صحبة عشرة فرسان ، فقال عنترة : قد يطمع فينا هؤلاء الفرسان ، وأرى أن نطلبهم قبل أن يطلبونا ، فقال شيبوب : دعنا منهم ولا تحملنا تبعة دمائهم ، وسر بنا فى هذا السبيل حتى يذهب كلّ منا إلى شأنه . ولكن الفرسان رأوهما فطمعوا فيهما وتبعوهما مسرعين ، وأنذروهما أن يقفا وإلا قتلوهما . فقال عنترة : أردت أن تحقن دماءهم وأرادوا هم إلا أن يريقوها على أديم الصحراء ، فلا تتعب نفسك فى التفكير ؛ فالأمور سائرة كما كتب لها أن تسير ، فهيا بنا إليهم ليلقوا منى ما قدر لهم ، ثم هجم عليهم هو وأخوه فقتلوا الفرسان العشرة ، وهرب العبيد والفارس الذى كان معهم وهم الذين تولوا خدمة من فى الهودج ورعايته ، وأبرك شيبوب الناقة وفتح الهودج فوجد فيه فتاة هى أجمل من وقعت عليها عين ، وهى مستلقية لا تتحرك ولا تحس ، فقال عنترة لشيبوب : هذه الفتاة نائمة أو ميتة ؟ فقال : لا أدرى ولكنها بلغت من الجمال حدًّا لا تشاركها فيه بنت أو امرأة وسأتبين لك أمرها ، ثم دنا من النساء اللاتى حول الهودج وأمنهن على أنفسهن ، فتقدمت

إليه امرأة باكية هى أقرب شبهاً بالفتاة المستلقية فى هودجها وقالت :
أيها الفتى ، ملكت فارحم ، فنحن نساء ، وقد قتلتم رجالنا ، فقال شيبوب :
ليس لنا ذنب فى ذلك فهم الذين طلبونا ، وقد كنا سائرين فى سبيلنا ،
فقالت : ليس لكم ذنب فيما حل بهم من هلاك ، فهم الذين اعتدوا عليكم
وبدءوكم بالقتال وقد لقوا جزاء ما فعلوا . فقال : أبشرن بالسلامة والأمان
وعرفينا بهذه الجارية وحالها ، فقالت : هى ابنتى أصيبت بتابع من الجن
فجعلها على الحال التى تراها بعد أن خطبها ملوك تهامة ، فسرنا بها إلى البيت
الحرام لعلنا نجد عنده الخلاص من هذا التابع . فالتقينا بكم ، وجرى بنا
ما تعرفونه ، ونحن الآن بين أيديكم .

فأشفق عنترة عليهن وحدق فى وجه الفتاة فاستقرت محبتها فى قلبه ،
وقال لأمها : ومن أى الناس أنتم ؟ فقالت : نحن من بنى الضحاك ، وقد
قتلتم لى فيمن قتل ثلاثة رجال ، فقال : كرمت وكرم قومك ، ولو علمنا
بحالكم ما فجعناكم بقتل رجالكم ولكن الأمر مقدور ، ورجالكم كانوا
السبب فيما حصل ، فأبشرى بالأمان وخلاص ابنتك من هذا التابع الرجيم ،
واذهبى إلى بعلك وأمنيه على نفسه وبشريه أنى سأنقذ ابنته مما هى فيه ،
وأعلميه أنه إن أنعم علىّ بزواجها جعلت له سطوة الملوك وسلطة الأمراء ،
فذهبت إلى زوجها وأخبرته ، وفى أثناء ذلك سأله أخوه شيبوب : كيف
تحارب الجن ؟ فقال : لئن بدا لى الجن فى صورة إنسان ما أبقيت منهم

أحداً ، ولكنى سأضع عليها التميمة التى أعطانيها مقرى الوحش ثم لننظر
ماذا يكون من أثرها ، وأظنك تذكر أنها خلصت عبلة من سحرها الذى
أصابها فى بلاد اليمن ، ثم علق التميمة على صدرها فاستيقظت وهبت نشيطة
سليمة الجسم ، وجلست مطرقة من الحياء ، فرحة بنعمة الشفاء ، ولما
حضر أبوها وأمها ورأياها قد صحت وسلمت فرحا وشكرا ، فقال عنترة :
ولئن زوجتنيها لأجعلن القبائل تحت أمرك وفى يمينك ، فقال : ومن أنت
من رجال العرب الأكرمين ؟ فقال : عنترة بن شداد فارس بنى عبس
وعدنان ، فقال : فرع كريم لأصل كريم ، وقد سمعنا عنك ما رفع
ذكرك ، ولكن لك مع عبلة غرام لا ترضى به بديلا ، فكيف تطلب زواج
ابنتى وليس لها فى قلبك مكان ؟ فقال : تحول القلب عنها ، وفى النية ألا
أرجع إلى ديارها ، وحدثه عن أولاده ونسائه بمكة وأنه ذاهب إليهم ، وأن
مهر ابنته ما يقترحه عليه من المال ، فأجابه إلى ما طلب ، وما أتى المساء
حتى كانت ابنته لعنترة زوجة ، وأقاموا فى مكانهم هذا ثلاثة أيام ،
ثم قال عنترة لأخيه شيبوب : لقد أولونى جميلا بزواج ابنتهم دون أن يأخذوا
مهراً ، ولا أحب أن آخذهم معى فى غزواتى فارجع بهم إلى عامر بن الطفيل
ودعهم فى رعايته واجعله يسوق أموالى جميعها إلى هذه الفتاة . وأعلم الرجل
حماه بذلك فقال : مرنا بما تشاء فليس لى أمل فى الرجوع إلى بلادى بعد
قتل أولادى ، فقال شيبوب : ولقد أصبح بينى وبين هؤلاء الناس نسباً ،

فقد عشقت جارية فيهم فتزوجتها ولى معها ثلاثة أيام، فضحك عنترة، وقال
لقد سعدنا بهذا الملتقى ، ثم ساروا فى صحبة شيبوب إلى حيث يجرى عليهم
ما قدره لهم علام الغيوب .

٥

وسار عنترة إلى البيت الحرام، فلما قرب من المضارب سمع بكاء هنا
وبكاء هناك ، وسمع غمرة تندب ابنها عضوبا، وأخرى تندب ابنها ميسرة
وأخرى تندب سبيع اليمن، فقال عنترة : ما أشأم هذا الصباح ! ! فلما
سمع الحى صوته أسرعوا إليه وفيهم غمرة فسألهم عما دهاهم وأبكاهم ! !
فقالوا : ما أغار علينا عدو ولكن ولديك غصوبا وميسرة كانا يخرجان إلى
الصيد ويعودان فى المساء ، وفى اليوم الرابع من خروجهم للصيد ركبوا إليه
فى خمسة فرسان ومنهم سبيع اليمن، وانتظرنا عودتهم فلم يعودوا، ولما يئسنا من
رجوعهم إلينا ركبنا الخيل، وسحنا فى جنبات القفر لعلنا نجدهم فما وقعنا لهم
على خبر ، وفى أثناء عودتنا رأينا أثر معمعة حديثة العهد فنقبنا فى القتلى
لنتعرف عليهم، فوجدناهم الفرسان الخمسة الذين صحبوا غصوبا وميسرة وسبيع
اليمن، ووجدنا من بينهم فارساً تتردد فى صدره أنفاس الحياة ولكنه لا يتكلم
ولا يعى فحملناه وجئنا به . وقمنا بعلاجه حتى صحا البارحة وانتبه، فأخبرنا

أن أبناءنا أسرهم ذو الحمار وجبار بن صخر الإسرائيلى فارس حصن خيبر ،
فقال : ائتونى بالفارس الجريح عسى أن يدلنى على مكانهم ! فأحضروه
بين يديه ، وهاك حديثه فى ذى الحمار .

لما خاص ذا الحمار بنو عمه كره أن يقيم فى الحجاز والعراق واليمن ،
وسار بهم إلى أرض الشام لينزل على قيصر ، ويريه طرفاً من شجاعته
ويمنيه بالمعونة على الفرس ، وما كادوا يمعنون فى السير حتى أحسوا خيلا
تركض فى آثارهم ، فقال ذو الحمار : هؤلاء ما أظنهم إلا جادين فى
طلبنا، فتأهبوا لقتالهم وانتظروا فى مكانكم، فإنى سألتقى بهم وسأقتلهم جميعاً،
ولا تتحركوا لقتالهم حتى تجدونى فى حاجة إلى معونتكم ، وكان هؤلاء
الفرسان من بنى إسرائيل وزعيمهم جبار بن صخر فارس حصن خيبر ،
جاء إلى البيت الحرام ليحضر موسم العرب بمكة ، ويبلغ يهود الحجاز
ظهور رجل من وراء نهر السبت يقال له يوشع يدعو إلى شريعة موسى بن
عمران ويجدد ما بلى منها ، فرأوا فى أثناء مقامهم بمكة ما كان بين ذى
الحمار وعنترة ، وفى أثناء عودته إلى دياره التقى بذى الحمار وتبارزا فما نال
أحد من أخيه شيئاً ، وقال جبار بن صخر : ليس بيننا عداوة ولا ثأر ،
ومن الحق أن يبقى كلٌّ منا على صاحبه ، فقال ذو الحمار : لا تؤاخذونى
بما فعلت ، فإنى رجل كثير الأعداء أخاف على نفسى من كل طارق ،
وما جعلنى فى هذا المأزق إلا عنترة وكراهيتنا لما ناله من رفعة ومكانة بعد أن

كان عبداً راعياً ؛ ثم حدثه بما جرى له فى البيت الحرام وقال : وإنى ذاهب الآن إلى بلاد الشام عسى أن أجد لى فيها مقاماً هنيئاً . وأخبرنى ، من أنت أيها الفتى ؟ وإلى أين أنت ذاهب ؟ فربما تخذتك لى صديقاً أستعين به على صروف الزمان ، فقال : إننى رجل إسرائيلى يدعى جبار بن صخر فارس حصن خيبر ، جئت البيت الحرام لأحضر موسم العرب فيه ،وأبلغ يهود الحجاز أنه قد ظهر وراء نهر السبت رجل يدعى يوشع يحيى شريعة موسى ،ويدعو الناس إليها ، وسيظهر أمره هذا العام، ويكون له من الجنود من يستطيع بهم فتح الحصون وهدم الأسوار ، ففرح به ذو الخمار لأنه أصبح وحيداً لاسند له وقال : ليس لى مفر من صداقتك ، وتقدم إليه فعانقه وتعاهدا على الولاء والمحبة وفرح فرسان جبار ابن صخر أيضاً ،وامتزج الفريقان ثم سأله ذو الخمار عن العرب بمكة ،فقال : رحلت قبائل اليمن جميعها ، أما قبائل الحجاز فلا تزال مقيمة هناك حتى يشفى هانئ من جروحه ، فقال : لم يبق لى عدو إلا عنترة ، وقد امتلأ قلبى حسداً له وبخاصة بعد أن علق على الكعبة قصيدته ، فقال جبار : لقد أصاب حسدك موضعه ،فقد منح من الشجاعة ما لايشق له فيها غبار ، فقال : وما جعلنى أهيم على وجهى مشرداً فى القفار إلا ذلك العبد المجدود ؛ ثم عرض على جبار أن يقيموا فى مكانهم ثلاثة أيام حتى يرسل إلى مكة من يأتيه بأخبار عنترة فوافقه على ذلك ، فرجع إليه رسوله يحمل إليه رحيل

عنترة وقومه ، ففرح وقال : بلغت الآن ما أريد ، ودنا أجل هذا العبد الأثيم، فقال جبار وكيف ذلك ؟ فقال : إن عنترة رحل بقومه وترك أولاده ونساءه وهو لا بد عائد إليهم فلنرتقب عودته حتى إذا مر بنا جعلناه نهباً لسيوفنا ورماحنا ، فقال جبار ليس فى ذلك فائدة ، وربما لا يعود إلى من خلفهم فى البيت الحرام ، والرأى أن نمكث فى هذا المكان ونركب كل يوم باحثين عن أبناء عنترة ، فهم فيما أعتقد لا يسكتون عن الخروج للصيد كل يوم ، فإذا ما التقينا بهم أسرناهم أو قتلناهم ، وفى ذلك ضعف لعنترة، وتحطيم لقوّته .

وفى اليوم الخامس من بحثهم هذا عثروا على ميسرة وغصوب وسبيع اليمن ومن معهم فتركوهم حتى يحل بهم التعب من الصيد والكر والفر ثم أطبقوا عليهم ، وأعملوا فيهم سيوفهم ورماحهم حتى أسروهم ، وقتلوا من معهم ، وما نفع أبناء عنترة وسبيعا بأسُهم وشجاعتُهم ، وما بذلوا فى الدفاع عن أنفسهم من كفاح وجهاد ، فلما جاء الليل وجلسوا يتشاورون قال ذو الخمار : نحن نعجل بقتل هؤلاء الأسرى ثم نفر إلى مكان سحيق فى الصحراء لا يعرفنا فيه أحد مخافة أن تخرج غمرة وفرسانها فى طلب رجالها، وربما لا نستطيع الوقوف فى وجوههم فيتبدل الحال ، ونصبح فى أيديهم أسرى، أو تحت سنابك خيلهم قتلى ؟ فقال جبار : ذلك ما لاينبغى أن نفعله، فإن أنت فجعت عنترة فى أبنائه فتحت على نفسك أبواب البلاء،وكنت

مطلوبا له فى كل مكان فى الأرض أو فى السماء ، فإذا ظفر بك قتلك ؛ والرأى عندى أن نرسل الأسرى مع بعض فرساننا إلى حصن خيبر ، أما نحن فنمكث هنا حتى نظفر بعنترة ونقتله ؛ فوافقه ذو الخمار وأرسلوا الأسرى إلى حصن خيبر ليرجعوا إليهم بعد أن ينفذوا ما اتفقوا عليه من طلب عنترة وقتله .

أما غمرة ورجالها فقد انتظروا عودة غصوب وميسرة وسبيع فلم يعودوا وكلما مرت ليلة على غيبتهم اشتعلت فى صدورهم نار الحزن والمخافة ، فخرجوا ذات يوم باحثين عنهم فى الصحراء حتى قاربت الشمس الغروب ، وبينما هم راجعون وجدوا فى طريقهم آثار معركة حامية : من جثث مقتولة ودماء مراقة ، ووجدوا ذلك الجريح الذى لم ينطق ، فحملوه إلى الديار ، ودأبوا على علاجه حتى انتبه ونطق ، وأخبرهم بجميع ما حصل لهم . وما زالوا فى هم وحزن حتى قدم عنترة وأطلعوه على ما حل بهم ، وأحضر هو الجريح بين يديه ، وشرح له ما لاقوه من جبار وذى الخمار وفرسانهما ، ثم قال : وإن وثقت بى خلصت الأسرى من أيديهم ، وذلك لقاء ما وجدته فيكم من معروف وإحسان ، فقد أنقذتمونى من الهلاك ، وقد كنت منه على قيد خطوات ، وذلك يسير بالنسبة لما أسبغتموه علىّ من فضل عظيم ، فأنا مدين بحياتى لكم ، أسير لنعمتكم وفضلكم ، فقال عنترة : لقد أصبحت فى ذمتنا مستمتعاً بكل سلامة ونعمة ، وستسير قدامى إلى حصن

خيبر ، لترى بعينى رأسك ما سأفعله ببنى إسرائيل من قتل ومهانة ، وإن وجدت أحد أبنائى قد قتل فلن أترك منهم على وجه الأرض أحداً ، وسواء أكانوا أحياء أم أمواتاً ، فإن ذا الخمار قد حقت عليه كلمة الفناء جزاء بما قدم من شر وأذى ، وإن أعظم خدمة أقدمها للمجتمع قتل هذا الخبيث الغادر اللئيم ، وقد كنت عولت على قتله غير مرة ، ولكن دريد ابن الصمة قريبه ، ولا أنكر فضله وإخلاصه ، فإن كنت قد أبقيته فيما مضى فذلك من باب المثل السائر « كل عين يكرم لها ألف عين » فقيل له : ولكنه جاوز المدى فى الخيانة والعدوان ، وإن من الحق أن تعجل بقتله ، حتى تريح الإنسانية من عبثه وتطهرها من كدره ونكده ، فوعدهم عنترة أن يريحهم منه متى وقع فى يده ، ثم تهيأ للرحيل إلى حصن خيبر لتخليص أبنائه وسبيع اليمن ، فسار فى جمع من فرسان بنى عبس وقضاعة ، وغمرة معهم تندب ابنها ، وتتقد حزناً على فراقه .

وكان عنترة قد أخبر أباه شدادا وعروة بما كان من عبلة ومن أمر زواجه ، وأخفى ذلك عن بقية أهله ، فلما قربوا من الحصن استأذنهم اليهودى أن يسبقهم إليه ، ليكشف لهم الأخبار ، ويتعرف الأحوال ، حتى يكونوا على بصيرة من هجومهم وقتالهم ، ولعله يصلح ذات بينهم ، ويحضر لهم الأسرى بطريقة ودية لا يراق فيها دم جزاء بما قدموا له من معروف ، فقال عنترة : اذهب إليهم ، وافعل ما تشاء واحذر أن تخون

أحداً منا ؛ فقال اليهودى : أعوذ برب موسى وهارون أن أكون ممن يؤتمن
ويخون ، فقد رددتم لى حياتى ، وأرجعتمونى إلى أولادى وأهلى ، ولن أنسى
لكم هذا الجميل ما حييت ، وكان هذا اليهودى يسمى أبا سهيل ، فسبقهم
إلى الحصن ، ولما دنا منه عرفه حراسه ، فتقدم إليهم وإلى رئيسهم ميشا .
وكان جباراً غليظ القلب — فهنئوه بسلامته ، وسألوه عما جرى له ،
وكانت له هيبة فى نفوسهم ، فقال : قصتى طويلة عجيبة ، ولكن
أخبرونى أنتم ؛ هل رجع إليكم جبار ابن عمكم ؟ وهل جاءكم خبره مع
ذى الحمار ؟ فقال ميشا : لم يرجع إلينا ، ولكن قدم علينا جماعة من
أصحابنا ومعهم أسرى ، وذكروا لنا أنهم من شجعان العرب وأبطالهم ،
وأوصونا بالاحتفاظ بهم ، والاحتراس منهم ، كما أخبرونا أنه صادق
ذا الحمار وتعاهدا على المعونة الصادقة ، والسعى إلى قتل عنترة بن شداد
حامية بنى عبس ؛ ونحن فى انتظار ما يكون من قصتهم ، ونحن فى خوف
من هذا الأمر وعاقبته ، فقال أبو سهيل : لا بأس أن يهتم المرء بالعواقب
ويحذر شرها ، وأما عنترة فهو أمنع من عقاب ، وقد أتاكم فى قوة من
جنوده ورجاله ، ليخلص أبناءه ومن معهم ، وقد بعثنى إليكم نذيراً ،
وأقسم برب البيت ألا يترك على وجه الأرض خيبريا أو إسرائيليا إن مُس
أبناؤه ورجاله بشر أو أذى ؛ ثم حدثهم حديثه ، وشرح لهم قصته ، وما
لقيه عند عنترة من جميل العشرة وكريم الإحسان والمعاملة ، ووصف لهم

شجاعة عنترة ، وقوة بأسه ، وشدة بطشه ، وثبات فؤاده ، ثم قال : وأرى من
الخير لكم أن تطلقوا هؤلاء الأسرى ، وترسلوهم إلى عنترة قبل أن يُصب عليكم
بلاؤه ، فإنه هو وفرسانه كفيلون أن يبيدوا أمة إسرائيل وإن اجتمعوا فى
صعيد واحد ، فقال ميشا : — وقد أحس ثقل هذا الحديث على نفسه —
ويلك يا أبا سهيل ! ! لعل قلبك قد وهن بما رأيت من شبح الموت ؟
كيف أكون فى ألفى فارس من بنى إسرائيل ، وطوائف من عبدة الإنجيل ،
ولى مثل هذا الحصن المبنى بالصخر والحديد ، ومن ورائى الملك قيصر
الذى دان لحكمه القاصى والدانى — كيف يكون لى كل أولئك — وأخاف
فارساً فى ثلاثمائة من عرب الحجاز الذين لا يجدون ما يأكلون ، وليس لهم
مأوى إلا الصحارى والقفار ؟ ! ! على أن هؤلاء الأسرى ليس لى عليهم
أمر ولا حكم ، وإنما هم عندى وديعة وأمانة لجبار ابن عمى ، وإن أنا
أطلقتهم وسلمتهم كما تقول غضب علىّ ابن عمى وعيّرنا ذو الحمار وقال :
حقيقة إن اليهود من خوفهم ضربت عليهم الذلة والمسكنة ، ولن تقوم لهم
قائمة ، ولهذا فإنى لن أطلقهم ، ولن أسلمهم وإن أهلكنا من دونهم ،
فقال أبو سهيل : ما أضيع النصيحة الخالصة إذا لم تسمع ! وما أنا عليكم
بمسيطر ، وقد نصحت لك وحذرتك سوء العاقبة ، وإن أنت أطعتنى
استطعت بدهائى وتدبيرى أن أجعل عنترة ورجاله ملك يمينك دون حرب
أو قتال ، فقال ميشا : افعل ما تشاء ، فقد وهنت عزائمنا بقولك ، وأثقلت

ظهورنا بما وصفت من شجاعة هؤلاء العرب وبأسهم ، فقال أبو سهيل : ما قلت إلا حقًّا ، وما أنت الآن ورجالك إلا طعمة لسيوف شياطين مردة ، فإن استمعت لقولى وطاوعتنى مكنتك منهم بالمكر والحيلة لا بالعنف والقوة . فقال ميشا : وبماذا تشير ؟ فقال : أن تطلق فرسانك يكمنون بأسلحتهم فى جنبات هذا القفر ، بحيث لا يشعر بهم إنسان ، ثم تطلق الأسرى وتمنحهم الهبات ، وتمدهم بالخيل والسلاح ، وترسلنى بهم إلى عنترة ، وهناك ألقى إليه معاذيرك ، وأدعوه هو ورجاله إلى أن ينزلوا عندنا ضيوفاً ، فإذا ما حضروا بالغت فى إكرامهم والحفاوة بهم فأطعمتهم وسقيتهم ، وحينئذ تأمر فرسانك الكامنين أن يهجموا عليهم ويقيدوهم ، ومن دافع منهم ومانع قتلناه ؛ وذلك ما دبرته لك من الأمر فاختر لنفسك ما أردت ، فاستراح ميشا لهذا التدبير ، والتفت إلى عالم حكيم يدعى هارون ، وطلب إليه أن يبدى رأيه فيما سمع من أبى سهيل فقال : رأى صائب ، وتدبير ناجح ، وسأعينكم بما أقدمه لكم من ورق السبات لتضعوه فى كئوس الخمر وهو كفيل أن يجعلهم كالموتى لا يتحركون .

اطمأن ميشا وأعلن فرسانه هذا التدبير ، وأنفذهم إلى القفر يكمنون فى جنباته خفية ، وفى الصباح أحضر الأسرى بين يديه ، وقال لهم : لو كنت أعرف من أنتم ما تركتكم فى قيود الأسر ، والآن عرفتكم وعرفت آباءكم وصاحبكم عنترة الذى لا يقف فى وجهه أحد ، والذى تسعى الملوك إلى

صداقته ، وأحب أن أعيش فى زمامه ، وأقوى على الأعداء بسيفه وسنانه . وأن أكون من رجاله وأعوانه ، ومنحهم الهدايا وأغدق عليهم الهبات ، وأعطاهم الخيل والسلاح ، فقال غصوب : خاصم من تشاء من أهل الأرض ولا تخش أحداً ، وإن ناوأك أعظم جبار فى الأرض فابعث إلينا لنقتله ، ونقتل رجاله ونخرب دياره ، وتهيأ أبو سهيل ليصحبهم إلى عنترة ، ولما رآه على بعد قادماً برجاله خف إلى الحصن ، وأخرج منه طائفة من الرجال ، وفرقة تعزف بالمزامير ، وساروا معه إلى استقبال عنترة ، ولما التقيا تقدم أبو سهيل إليه بأبنائه وسبيع اليمن ، وأبدى رجال قيصر طاعتهم واحترامهم ، وقدموا معذرتهم ، فقال لهم : قبلت عذركم ، وشكرت لكم صنيعكم ، وأحب أن تخبرونى : من أسر أولادى ؟ ومن جاء بهم إليكم ؟ فقالوا : أرسلهم ذو الخمار وصاحبه جبار ، وقد تخلفا ومعهما جماعة من الفرسان الأشداء ليطلبوك فى ديارك ، ولم نعرف لهم بعد ذلك خبراً ، فقال : وجب علينا الرجوع فوراً إلى الديار لعلى أدركهم قبل أن ينتهوا من قتالهم . فقال ميشا : إنك قادر عليهم متى شئت ، وأحب أن تنزل عندنا لتستريح وتأكل من طعامنا ، وتأخذ علينا ميثاقنا أن نكون لك ومعك فى الشدة والرخاء ، وأقسم عليه أن يستجيب لرجائه هذا ، وأمر أن تضرب الخيام فى مكان فسيح وتفرش البسط والحشايا ، وما انتصف النهار حتى كانوا فى خيامهم والموائد بين أيديهم وهى حافلة بألوان الطعام ، ولما طعموا دارت عليهم الخمر

فى كئوس ذهبية وفضية مرصعة بالجواهر ، فلما خدرت أعصابهم ، وخمل
حسهم ، وخبا شعورهم ، سقوهم خمراً ممزوجة بنقيع ورق السبات ؛ فغرقوا فى نوم
عميق لا يوقظهم منه وخز السنان .

وكانت غمرة فى معزل عن تلك الخيام التى ضربت لعنترة ورجاله ومعها
قوة من شداد الفرسان ، فأكلت من طعامهم ، وحرمت على نفسها ومن معها
خمرهم لأنها لم تزل فى شك من أمرهم ، وخشيت أن يتخذوا من الخمر
سبيلا إلى النكاية بهم ، وآثرت أن تكون هى ومن معها حراساً على قومهم
إذا ما غرقوا فى سبات الخمر ، وما لبثت أن رأت فرساناً يأتون سراعاً من
كل جانب ، فأدركت الحيلة وأسرعت هى ورجالها إلى قومهم فوجدوهم
كالموتى ، فانتزعت من بينهم ابنها غصوبا . وحملته على جوادها ، وأسرعت
برجالها إلى حصن خيبر ، فاستولوا عليه واعتصموا به ، إذ قدرت أن الحصن
حينئذ مفتح الأبواب وهو خال من الحرس ، فصدق تقديرها ، ودخلوه
سالمين وغلّقت أبوابه . ولما علم ميشا بسقوط الحصن فى يدها حزن حزناً
عظيما وقال : لقد خسرنا وغلبنا على أمرنا وبطل تدبيرنا ، ومكرنا وما نحن
بمنصورين ، فقالوا : لا يهولنك سقوط الحصن فى أيديهم فنحن قادرون
على انتزاعه منهم وإن كانوا عدد النجوم ، وقال أبو سهيل الذى أحضر
عنترة : لا تغرنكم كثرة عددكم . ففى الحصن فارس يدعى غصوبا ، لو
امتشق حسامه وامتطى جواده أبادكم وحده بسيفه ، وإن بلغتم من العدد

والقوة أضعاف ما أنتم عليه الآن ، وأرى أن تصالحوا هؤلاء القوم ، وتذعنوا
لطاعتهم ، وتبرموا مواثيق الإخاء بينكم وبينهم ، وبذلك تأمنون شرهم ،
ويرحلون إلى ديارهم ، وتحقنون دماءكم ، ويخلص لكم حصنكم ، ثم باتوا
يتشاورون ، ويفكرون ويقدرون ، وكانوا قد أوثقوا من فى الخيام بالأغلال ،
وحبسوهم فى القيود وهم نائمون . وفى الهزيع الأخير من الليل استيقظوا من
سباتهم ، وثاب إليهم رشدهم ، فوجدوا أنفسهم موثقين مقيدين ، فأدركوا
أنهم قد مكر بهم ، وقال عنترة : لقد احتالوا علينا حتى وقعنا فى أيديهم
على نحو ما ترون ، ولئن قدر لى الخلاص فلن أترك على ظهر الأرض
يهودياً ، وإن كان على ظهر العجل الذى يعبده ، ثم سأل عن أولاده
فأجابه ميسرة : ليس بيننا غصوب ولا ندرى ما فعل به ، فقال عنترة :
سيكون فقده — إن حصل — سبباً فى فناء اليهود على بكرة أبيهم ؛ فتقدم
إليهم أحد اليهود الذين قاموا على حراستهم ، وأراد أن يطمئن عنترة طمعاً فى
المال والمكافأة بعد نجاته فقال : لا تفزعوا أيها العرب ، وأبشروا بنصر
عاجل قريب ، فإن صاحبتكم قد أخذت ابنها معها ، وملكت حصننا
وتحصنت به ، وإن لم نستطع التغلب عليها وعلى رجالها الذين معها بادرنا
إلى مصالحتكم وفك قيودكم ، فأشرقت وجوههم اطمئناناً وحمدوا لغمرة ما
فعلت ، وأدركوا سر تحريم الخمر على نفسها ورجالها ، وقال عروة : قد
كتب لنا الخلاص ، فإن ابنك غصوبا كفيل بهزيمة اليهود مهما يكن

عددهم ، وقال آخر : ولا تنسوا أمه غمرة وشجاعتها ، وقال آخر : وعما قريب يتبدل الحال ، ويصبح اليهود فى أيدينا مقرنين فى الأصفاد والأغلال ، وقال آخر : لعن الله اليهود فما نجحوا إلا فى الخبث والدهاء ، والمكر والخيانة ، وقال آخر : ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ، وقال آخر : وسنجزيهم بما خانوا قتلا وأسراً وتعذيباً .

وكانت غمرة قد حكت لابنها بعد أن أفاق ما فعله اليهود به وبأبيه ومن كانوا معه ، فاستنكر خيانتهم ، وقال : سأسقيهم كئوس الردى ، وإن موعدهم الصبح وليس الصبح ببعيد .

وفى الصباح اجتمع اليهود أمام الحصن يريدون الاستيلاء عليه عنوة ، فنزلت إليهم غمرة وابنها فى عدد من رجالها ، وخلفت فى الحصن قوة من بقية فرسانها لحمايته ، ورد ما عسى أن يكون من هجوم الأعداء عليه من خلفه ، وفتحت الأبواب ، وأفاضوا سراعاً إلى الأعداء ، فشقوا البطون ، ومزقوا الصدور ، وجزوا النحور ، وقلبوا لهم ألوان القتال حتى رأوا أن الموت يأكلهم كما تأكل النار الحطب ، وظنوا أنهم إن دأبوا على القتال فلن يبقى منهم أحد .

كان ميشا قد ترك المعمعة حامية ، وتسلل بقوة من رجاله إلى الحصن من خلفه ليستولى عليه ويسترده فلقيه الحراس الذين خلفتهم غمرة بما فطروا عليه من بأس وشدة ، وأحست غمرة ما فعل ميشا فأشارت إلى ابنها أن

ارجع بنا إلى الحصن فقد اقتحم ميشا الباب الخلفى ، وأوشك أن يقتل من فيه من رجالنا ، ويقع فى أيدى أعدائنا ، وكانت ملحمة عنيفة تطايرت فيها الرءوس ، وتساقطت الفرسان ، وطرد ميشا ومن تخطاه الموت من رجاله ، وما كشف عنهم هذا البلاء إلا هدنة الليل الذى تسكن فيه الحرب ، وأوى العرب إلى الحصن ، وانزوى ميشا ورجاله فى مكانهم وأخذوا يتشاورون فيما يفعلون ، فقال أبو سهيل : لا تتجاهل يا ميشا قوة العرب فهم قوم لا يخشون الموت ، ولن يغلبهم أحد ، واهنأ بسلامتك وسلامة البقية من رجالك وإن لم تصالحهم ، فما أنت بناج منهم ، ولا تغرنك كثرة الأعوان ، فإن الواحد منهم بألف مما تعدون . فقال ميشا : ما أجهلك يا أبا سهيل ! وما أقربك إلى الضعف والخور ! أتحملنى على مصالحتهم وإفلات عنترة بعد أن انتهى أمره ، ووقع فى يدى . وأصبح مبعث رفعتى لدى قيصر الذى كثيراً ما تمنى قتل عنترة ، وجعل لمن يأتيه به الزلفى لديه ، وكثيراً ما صرح أنه لولا عنترة ما خضع لأحد من الملوك ، وما حمل لكسرى الإتاوة كل سنة ، ولعلى إن سرت به وبأولاده وزوجه إلى قيصر منحنى إقطاعية وجعلنى عنده من المقربين ؟ ! فقال أبو سهيل : ما دمت تجرى وراء منفعتك ، وترى فيما تقوله صلاحاً لك فافعل ما ترى ، غير أنى ألفت نظرك إلى أمر هام : ذلك أن غداً يوم السبت ، وسنصبح فيه مسبتين ، وسنخلد فيه إلى الراحة ، وسيترك كل منا فيه عمله ، سواء أكان قتالاً أم غيره ، وأخشى أن يطلبنا

فيه هؤلاء القوم الذين استولوا على حصننا ، وذقنا من قتالهم الأمرين ، وربما تغلبوا علينا ، وفكوا أسراهم على الرغم منا ، وحينئذ تكون الطامة الكبرى ، وأرى أن تبعث هؤلاء الأسرى من فورك إلى الجبال ، يعزلون فى أوديتها محبوسين تحت حراسة قوة على رأسها جابر بن أسد ، وبذلك يكونون فى معزل خفى عن غمرة وابنها ورجالها ، فنأمن شرهم ، فاستراح ميشا لهذا الرأى وأحضر جابراً فى ساعته ، وأطلعه على هذا الرأى ، ومناه بالقرب من قيصر ورفع منزلته عنده ، والحصول منه على ما يشتهى ، فأطاع جابر أمر ميشا ، وأسرعوا إلى نقل عنترة ومن معه مقيدين إلى واد ضيق المدخل والمخرج ، وحبسوهم فيه ، وقام عليهم حراس كثيرون يحملون أسلحتهم .

وكان غضوب وأمه جالسين فى مكان من الحصن بحيث يريان ما يفعلون بعنترة ومن معه ، فقال غضوب لأمه : هؤلاء الخونة ينقلون أبى ومن معه إلى مكان لا نعرفه ، وأخشى أن يذهبوا بهم إلى مكان سحيق فى الصحراء لا نستطيع معرفته ، ولا إغاثتهم فيه ونحن هنا قاعدون ، فقالت : هؤلاء القوم لئام خونة ، ولا ينبغى أن نسكت على أمر لهم . وبخاصة ما يفعلونه الآن بأبيك ومن معه ، فماذا ترى ؟ فقال : أرى أن أتنكر فى زى عبد من عبيدهم وأتبعهم إلى حيث يذهبون ، فإن استطعت أن أخلص أبى ومن معه فعلت ، ورجعت بهم إليك فائزين ، وإن لم أستطع عرفت مكانهم ، وانقلبت إليك لنتشاور فيما نفعله لتخليصهم . فقالت : هذا

حسن ، ولكن قلبى يخشى عليك العطب ، فاترك لى هذا الأمر وامكث هنا معافى حتى أعود إليك . فقال : إن الآجال محدودة ، ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها ، ومن المنكر عندى أن أضن بمهجتى على أبى مبعث حياتى ووجودى . فقالت : صحبك التوفيق والرشاد ، وحصّنتك بالحى القيوم الذى لا يعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض .

وانسلّ غضوب فى زى العبيد ومعه سيفه حتى أنزلوا الأسرى بواد ضيق وأشرف عليهم الحرس من تلاله وجباله ، وسدوا برجالهم مدخله ومخرجه ، ولبثوا ينتظرون ما به يؤمرون ، كل أولئك وغضوب من بين عبيدهم يرى ما يفعلون ، ويرتقب الفرصة السانحة لتخليص أبيه ، وفى الصباح وجد عدداً من الرجال يتدفق على هذا المكان فعرف أنه مدد جىء به ليكون قوة فى يد جابر تعينه على ما يريد أن يفعله بهؤلاء الأسرى .

أما غمرة فلم تستطع صبراً على فراق ابنها ، وخشيت سوء المصير له ولها ، فجمعت رجالها ، واستشارتهم فى هذا الأمر ، وماذا ينبغى أن تعجل به حتى لا تقع فى ورطة لا تستطيع الخلاص منها ، فأشاروا عليها بالقتال ، فقالت : ولكنى أخاف عليكم من هؤلاء اللئام ومن مكرهم وخبثهم ، وربما كان سكوتهم عن قتالنا اليوم عن مكيدة دبرت لكم لأنهم قوم معروفون بالمكر والخيانة ، فقال رجل من أصحابها : لا يخيفك سكوتهم عنا هذا اليوم لأنه من تلك الأيام التى يخلدون فيها إلى الراحة ، ولا يباشرون عملا من

أعمالهم . فدعينا نخرج إليهم لنقطع رقابهم ، فقالت : لنترك فى الحصن حامية منا تحرسه لنلجأ إليه ، ولتنزل بقيتنا معى لمحاربة هؤلاء الأنذال .

طلعت غمرة فى كثرة من رجالها على فرسان اليهود وأشعلتها ناراً من حرب حامية جزت فيها الرقاب ، وقطعت الأوصال ، وشردت الجموع ، وألقت فى صدورهم رعباً ولى بهم الأدبار ، وما فتئت أن رأت غباراً كثيفاً لجيش قادم. فقالت : لننتظر حتى نتبينه ، فإن كان من أعدائنا أوينا إلى الحصن لحماية أنفسنا ، وإن كان جيش عنترة فقد فزنا على هؤلاء الخونة اللئام .

وكان هذا جيش قيصر الروم بقيادة البطريق مرتوما ، أرسله ليأخذ من اليهود الجزية المضروبة عليهم ، ولما عرفه ميشا المهزوم فرح به وأيقن أنه بالغ فى غمرة ورجالها ما يريد ، وبشر رجاله بالنصر العاجل ، وقال لهم : سنبيد رجال العرب ونسلم عنترة إلى قائد قيصر ، وحينئذ يكون لنا عنده منزلة عظيمة. ولما التقى به قص عليه ما هم فيه من هزيمة وبلاء ، وأطلعه على جميع ما وقع له ولقومه من هؤلاء العرب ، وما فعله بعنترة ورجاله ، فقال له مرتوما : إن كان عنترة فى قبضة يمينك كما تقول فأبشر بنيل المنى ، فإن رسول كسرى وفد إلى مليكنا وأنذره إن لم يرسل الخراج إليه سلط عليه عرب الحجاز فقوضوا ملكه ، وإن مليكنا لا يخاف إلا منهم ومن عنترة بن شداد حامية بنى عبس ، ولهذا فإنه سيفرح لأسر عنترة فرحاً عظيما. وستنال

منه ما تشتهى ، وسأكفل لك عنده أن يعلى قدرك ويرفع الإتاوة عن قومك وتكون عنده من أقرب خواصه وأرفعهم قدراً عنده ؛ ثم قال : وكم فى حصنكم من رجال العرب ؟ فقال : إن عدتهم تربو على الخمسين ، ويخرج منهم ثلاثون ولكنهم لا يطاقون ، ومعهم امرأة من اليمن ، هى محنة المحن ، وبلاء الزمن ، لا تهاب الخطر ، ولا تخشى جيشاً عدته كقطرات المطر ، فضحك مرتوما، وقال : صدق ما قيل فيكم يا معشر اليهود : لقد ضربت عليكم الذلة والمسكنة . وسترون اليوم ما يفعله فرسان المسيح بهؤلاء العرب الذين أحلوكم دار البوار ، وجعلوكم مشردين فى القفار ، وانتزعوا حصنكم من أيديكم ، وصبوا عليكم البلاء فى ناديكم . فقال ميشا : عرفت الآن أن هؤلاء العرب سيصبحون طعمة لسيوفكم ، ولكنى أخشى أن ينالوا بسيوفهم من فى الحصن من أولادنا ونسائنا ، فقال مرتوما : إذا كنت تخاف من هذا فاجعل لنا سبيلا إلى دخول الحصن وإلا هدمناه على من فيه ، فقال ميشا : السبيل إلى دخول رجالكم الحصن يسير أمره ، وذلك أن من خلف الحصن باباً من الحديد يفتح على سرداب واصل إلى كنيس الحصن ، ومن اليسير أن نفتح هذا الباب ، وبذلك يتمكن رجالك من الدخول فيه بحيث لا يشعر بهم أحد . فقال مرتوما : افتح هذا السبيل وأبشر بكل ما تريد .

وكانت غمرة ورجالها قد لاذوا بالحصن ، وأقفلوا عليهم بابه ،

وارتقبوا ما كتب لهم من المصير ، وبينما هم فى قلق وفزع سمعوا صيحات داخل الحصن ، ورأوه قد ملئ برجال من النصارى واليهود ، فأيقنوا هلاكاً عاجلاً ، أو أسراً ذليلا ، وغلبت عليهم الحيرة ، وسدت فى وجوههم سبل العمل والهداية ، وأسلموا أنفسهم إلى القضاء يحكم فيهم بما يشاء ، وما هى إلا غمضة الطرف حتى كانت الدنيا تموج حول الحصن بمعركة حربية مفزعة ، شعر بها اليهود والنصارى المغيرون على الحصن ، فخافوا أن يكون أعداؤهم قد لحقوا بهم من خلفهم ، وانسلّوا سراعاً إلى خارجه يتبينون ما حاق بالحصن من هرج حربى ، وصيحات معركة لقتال أليم ، ولم تكن تلك المعركة الفاجئة إلا كشفاً للغمة التى نزلت على غمرة ورجالها ، فقد انفلت عنترة ورجاله من معتقلهم وسجنهم ، واستطاعوا أن يزودوا أنفسهم بأسلحة من أعدائهم ، وجاءوا إلى الحصن سراعاً فوجدوا جيش قيصر وفرسان اليهود محيطين به ، فأثخنوهم قتلا وتشريدا ، وأنزلوا بهم من ألوان البلاء ما لم يكن فى حسبانهم ، فأفسدوا عليهم تدبيرهم ، وبددوا كل رجاء وأمل فى صدورهم ، ونكبوهم بالفشل والخزى المبين. ورأت غمرة هذه الحال وعرفت أن عنترة وابنها ومن معهم جاءوا وهم يحاربون ففرحت بذلك ، وأخذت رجالها فنزلوا إلى باب الحصن وفتحوه وخرجوا إلى لقائهم فرحين بما قدر لهم من نصر عظيم .

* * *

وكان السبب فى انفلات عنترة ورجاله أن غصوبا تنكر ودخل فى زمرة العبيد من اليهود ، ولما رأى هؤلاء الحراس جيش قيصر مقبلا هبوا إليه ليتعرفوه ، وهناك فرحوا به واطمأنوا لحضوره ، وأغراهم الاطمئنان فى البقاء عنده زمناً غير قصير ، فانتهز غصوب هذه الفرصة ودخل إلى أبيه ورجاله فعرفوه ، وفرحوا بلقائه ، وأسرع إلى فك قيود أبيه ورجاله ، وكان كلما فك قيد فارس أسرع هذا الفارس إلى فك قيد زميله حتى لم يبق منهم أحد ، ثم خرجوا من الوادى كالسيل مسلحين بأخشاب من أشجاره ، فهجموا على العبيد ، وقتلوا كثيراً منهم ، واستولوا على أسلحتهم ، ثم فروا إلى الحصن فوجدوا ذلك الجيش الذى فرقوه شذر مذر ، وأفنوا كثيراً منه ، ثم التقوا بغمرة ورجالها ، وكان لقاء ساراً بعث فيهم الحياة ، وأذهب عنهم كل يأس وحزن ، وطلبت إليهم غمرة أن يدخلوا الحصن ليستريحوا فيه إلى الصباح ، ثم تمدهم بما فيه من خيل وسلاح لقتال هؤلاء الخونة اللئام ، فقال عنترة : أتريدين منى أن أحتمى بالجدران ؟ ! لن أبرح مكانى هذا حتى يشرق الصباح بضوئه لأتبع هؤلاء الأعداء ، وأحل بهم الدمار والفناء ، فقد خانونا ومكروا بنا ، وسأذيقهم مرارة خيانتهم ، وأطهر الإنسانية منهم ، فهم بخياناتهم نجس يجب ألا تقلهم أرض ، ولا تظلهم سماء ، ثم أمر ابنه غصوباً ورجاله أن يدخلوا الحصن ويخرجوا من فيه من النساء والبنات الصالحات للسبي ، والأموال والأسلحة والخيل المسومة ، ثم يشعلوا النار فيه ، ففعلوا ما

أمرهم به عنترة، ورأى اليهود النار قد اشتد أوارها، وامتدت فى الجو ألسنتها، وانتشر دخانها ، فأدركوا ما فعل بأهليهم وأموالهم ، فعضوا بنان الندم ، واتقدت صدورهم حسرة وأسفاً . وقال ميشا لأبى سهيل: أنت الذى جررت علينا هذا الويل ، فقال : أنت الذى طمعت فى الجاه والمنصب والمال والمغنم فأبقيتهم فى القيود حتى تحملهم إلى قيصر لتسد بهم جشعك وطمعك، فوقعت فى ورطة جشعك وطمعك . فقال ميشا : ما كنت أتوقع هذا المصير، ثم ذهب إلى مرتوما، واستحثه على أن يصبر على قتال هؤلاء العرب، وألا يمكنهم من الراحة فى النهار والليل حتى يموتوا أو يضعفوا ويؤسروا ، فقال : لا أخاطر بجيشى، وأسوقه فى الليل ليقاتل هؤلاء المردة الشياطين ، فهم جماعة لا يطمع فيهم إلا من جهل بأسهم وقوتهم ، وفى الصباح نحاول أن نتغلب عليهم ، وإن لم نستطع ذلك رجعت بجيشى إلى قيصر، وأخبرته بما جرى ، وما عليكم إلا أن تفرقوا رجالكم على مسالك السبل ، يمنعوهم من الهرب فى ظلام الليل ، فإنى أظن أنهم ما أقدموا على إحراق الحصن إلا وهم مبيتون العزم على الفرار فى جنح الظلام . فقال أحد القواد: أريحوا أنفسكم من حراستهم فإنى أكفل لكم عدم فرارهم وهربهم ، وأؤكد لكم أنهم لن يتركوا هذا الحصن أبداً حتى يقتلوا أعداءهم ولا يبقوا منهم أحداً ، فإن الواحد منهم بألف من أشد فرسانكم .

وبينما هم فى حديثهم هذا وإذا بفرسان العرب يأخذون الجيش من كل

جانب ، وذلك أن غصوباً أصر أن يهجم عليهم فى ضوء النار المشتعلة فى الحصن، وتبعه أبوه وأمه وبقية الفرسان خوفاً عليه، والتقت الرجال بالرجال وجالت السيوف وتفجرت من الأجسام أنهار الدماء ، وما جاء الصباح حتى هزم جيش الأعداء ، وقتل فى تلك المعركة مرتوما وميشا وأبو سهيل ، واستولى العرب على أموالهم وأسلحتهم وفرت فلول الجيش هرباً .

٥

استراح العرب وأرادوا أن يرحلوا إلى الحجاز ليستعدوا لغزو ملك السودان الذى طرد غمرة من ديارها، فقال عنترة: دعونا من هذا إلى حين، فإنى لن أبرح هذا المكان حتى ألتقى بذى الخمار وجبار فارس خيبر وأقتلهما لأريح البشر منهما، وأحب أن يرحل منا من يأتينا بأخبار ديارنا حتى نطمئن عليها كما يأتينا بأخبار هذين الفارسين. فقالت غمرة: لن يصلح لهذا الأمر إلا أخوك شيبوب، ولست أدرى سبباً لتركك إياه فى الديار وعدم مصاحبته لك هذه المرة، فقال: كثر علىّ لجاجه فأغضبنى وحلفت ألا يصحبنى هذه النوبة، وقال هذا حتى يخفى عليها أنه تزوج فتاة أخرى ودخل بها، ثم سيّرها إلى ديار بنى عامر، وما أتم عنترة حديثه مع غمرة حتى رأوا رجلا على بعد قادماً عليهم تبدو عليه آثار الغربة والوحدة، فقال عنترة لعروة: ائتنى بهذا الرجل القادم فربما وجدنا عنده ما نريد من الأخبار، فركب عروة وأسرع إليه حتى كان عنده فإذا به شيبوب أخو عنترة، فضحك عروة وسلم عليه وقال: لقد كنا فى حديث عنك هذه الساعة، فأخبرنى ما تم فى زوجك وزوج أخيك، وكان قد عرف من عنترة زواجه من سروة وزواج شيبوب من سعدى، فقال

شيبوب: ومن أخبرك يا عروة بهذا الزواج المشئوم الذى وقعت به فى خطر، ولولا ما كتب لى من أجل ممدود لكنت الآن تراباً، فقد بعثنى أخى عنترة مع زوجته والنساء دون رفيق فسلكت طرقاً غير مسلوكة لأكون فى أمن من أن يلقانى أحد وكنت أعهد هذه الطرق مزودة بالماء والكلأ صيفاً وشتاء، ولكنى رأيتها قد تبدل حالها: فجف ماؤها، وصوح نبتها، وأصبحت قفراً لا تمد سالكها إلا بالجوع والظمأ المهلكين، وبعد يومين من مسيرى فيها دون ماء أسلمت النساء أنفسهن إلى الأرض وليس فيهن إلا نفس يتردد. فحملت قربتى وجعلت أجوب هذا المكان شرقاً وغرباً قاصداً أمكنة المياه التى أعرفها فى هذه البقعة فلم أجد قطرة ماء، فحار عقلى وجعلت أفكر فى سبيل لدفع هذا العطش عنى وعن النساء اللاتى أشرفن على الموت، وجعلت أسير هنا وهناك كالهائم التائه، فلاح لى عشرة فرسان بين أيديهم جماعة من العبيد، فقصدتهم أطلب الماء منهم، فإذ أولهم سليك بن السلكة الذى جرى لك معه ما جرى فى نوبة عمرو بن معديكرب الزبيدى. وهرب من عنترة أخى، فلويت وجهى عنهم وفررت هارباً منهم وسمعته يقول: يا للعجب! هذا شيبوب أخو عنترة، ثم ألح هو ومن معه فى طلبى بخيلهم وأخذت أعدو وهم يعدون من خلفى بجيادهم حتى أرهقتهم وأرهقت خيلهم، ولما ضعفت الخيل ترجل سليك، وجعل يتبعنى عدواً على قدميه، فعدوت أمامه وجعلت أتسلل فى القفار محاولا الاختفاء منه فى دروبها وبين آكامها حتى يضل

عنى ولا يعرف سبيلا إلىّ ، ولما يئس من اللحاق بى وصل الطريق إلى
مكانى الذى أخفيت نفسى فيه رجع خائباً ، ومكثت فى مخبئى حتى
أيقنت أن الأرض قد خلت منه ومن أتباعه ، فقمت حاملا قربتى أبحث
عن ماء فعثرت عليه وملأت قربتى وعدت أدراجى أبحث عن النساء اللائى
خلفتهن مطروحات من شدة ما بهن من عطش ، وذهب تعبى فى البحث
عنهن سدى ، ولم أعرف المكان الذى خلفتهن فيه ، وما يئست من لقائهن
إلا بعد ثلاثة أيام قضيتها باحثاً منقباً ، ولا أدرى هل ضللت مكانهن أو
عثر بهن من سقاهن وحملهن معه إلى مكان آخر ، فقصدت البيت الحرام عازماً
أن ألحقكم حيث كنتم وفى ظنى أنكم تعدون العدة للسفر إلى السودان لمحاربة
أهله من أجل غمرة ، فلما وصلت إلى البيت الحرام عرفت ما جرى لكم وأنكم
فى حصن خيبر ، فأتيتكم من فورى لأقف على أخباركم فقال عروة : حمداً لله
الذى نجاك من الموت ؛ ثم سرد عروة له قصتهم إلى أن التقى به ، فقال شيبوب :
وماذا بقى لكم بعد هذا فى تلك الديار ؟ ولماذا قعدتم عن الرحيل ؟ فقال :
إن أخاك عنترة مصر على ألا يبرح هذه الديار حتى يلتقى بذى الخمار
وصاحبه جبار ، وقد رغب فى أن يبعث أحداً يأتيه بأخبارهما ، وبأخبار
الحجاز ، وفى هذا جاء الحديث عنك ، وقال عنترة إنه غضب عليك
وسئم صحبتك فى هذه المرة ، يريد بذلك أن يخفى على غمرة أمر زواجه
وزواجك ، فا كتم ذلك ولا تحدث به أخاك إلا فى خلوة ، ثم سارا إلى

عنترة ففرح القوم بلقاء شيبوب وسلم هو عليهم ثم قال لأخيه :
ما حصـل لك هـذا يا ابن أمى إلا لأنك غضبت علىّ ، وإنى
أحمـد الله على سلامتك من أعـدائك ، ثم أحضروا له طعاماً
وشراباً فأكل واسـتراح ثم قال لأخيه عنـترة : ما عزمت أن
تفعل ؟ أترحل أم تقيم حتى يأتيك جبار وذو الخمار ؟ فقال عنترة :
أنا الآن فى حيرة ، فإنى أخشى أن أذهب إلى حرب أهل السودان وأترك
بنى عبس طعمة لجبار وذى الخمار ، كما أخشى أن أسير إلى بنى عبس
للقائهما فتختلف الطرق بنا ولا ألقاهما ، فقال شيبوب : فى ضحوة الغد
تجدون جباراً وذا الخمار معكم هنا ، فقال عنترة : أترجم بالغيب ؟ !
فقال : لا أقول إلا حقاً ، ثم مد بصره إلى الفلاة فرأى فارساً مقبلا فقال :
وهذا فارس مقبل ، ولا أظنه إلا قاصداً حصن خيبر ، فابعثوا إليه من
يتعرفه ، ويحضره بين أيديكم . وربما وجدتم عنده شيئاً جديداً ، فأرسل
إليه عنترة عضوباً وميسرة ، ثم اختلى شيبوب بأخيه وحدثه بما جرى على
زوجه والنساء اللائى معها ، وشرح له تعبه فى البحث عنهن حتى فقد الأمل
وضاع الرجاء . فحزن عنترة حزناً شديداً ، وجعل شيبوب يشرح له كيف
أنه لم يترك وسيلة للعثور عليهن ، وطمأنه قائلاً : إن رعاية الله لن تذهب
عنهن ، وما أظنهن إلا قد سلمن ونجون مما حاق بهن من العطب ، فربك
أرحم الراحمين .

أحضر ميسرة وعضوب الفارس موثقاً بالحبال ، فقال عنترة : أخبرنى أيها الفارس ، من أنت ؟ ومن أين جئت ؟ فقال : لن أخبركم بشىء حتى تشرحوا لى ما أصاب هذه الديار حتى أصبحت فارغة من أهلها ، فقال عروة : أساء أهلها إلينا فقطعنا دابرهم ، فحدثنا أنت بحديثك والتزم الصدق فيما تقول وإلا كنت من الهالكين ، فقال : سأصدقكم الخبر فإنى رسول جبار وصاحبه ذى الخمار ، جئت أبشر أهل الحصن بقدومهم وبما غنموا من بنى عبس من أموال وغنائم ، فقد هجموا عليهم وقت السحر يبغون عنترة لقتله فوجدوه غائباً ووقعت بينهم معركة حامية قتلوا فيها كثيراً منهم وأسروا قيس بن زهير ورجعوا به وبما غنموا إلى ديارهم وأهليهم ، وذلك ما عندى من خبر ، فقال عنترة : وهل ظفرتم بإحدى النساء العبسيات ؟ فقال الرجل : نعم ، ظفرنا بامرأة جليلة القدر تدعى عبلة زوجة عنترة حامية بنى عبس ، ولولا أن صاحبى جبارا عشقها لعجل ذو الخمار بقتلها نكاية فى عنترة الذى يبغضه ويتمنى له كل مصيبة حمراء ، فكاد عنتره يتفجر غماً وحزناً ، وهاج فى صدره حب عبلة ، وكذب نفسه فى أنه سلاها ، كما حزن على زوجته الجديدة التى لا يعرف لها مكاناً ، ولا يدرى أهى من الأحياء أم هى من الأموات؟ وضربت غمرة عنق ذلك الفارس اليهودى قائلة : لن أستطيع صبراً على إبقاء يهودى حياً بعد ما فعلوه بابنى ، ثم ركبوا خيلهم وساروا يقطعون الفيافى إلى الديار طامعين فى لقاء جبار وذى الخمار .

٦

عرفت عبلة أن ما جرى لها كان بسبب حمقها ، فقد أضلها الغرور ، وأفسد خلقها انقيادها لمن أغوينها من النساء من أمثال المدللة بنت الربيع ، فاستكبرت على عنترة ومدت إليه رجلها ليقبلها ، ولم يكن عنترة ممن يذل للهوى ويعنو وجهه لفتاة مهما تكن قد ملأت قلبه حباً ، فخرج غاضباً ناقماً منها حالها الجديدة التى كفرت فيها بمقام الرجولة وجحدت ولاية الزوجية ، وقد شمت بها حسادها من الفتيات والنساء ، وأنكرت عليها فعلتها من تعطف عليها من بنات جنسها وأصبحت بين نساء الحى ناشزة أثيمة ، تتخطاها العيون ، وقد انحط قدر أبيها وغضب عليه قيس ووبخه على ما فعلته ابنته وحمله تبعة غضب عنترة ورحيله ، وأنه لم يخبره بمغادرته الديار حتى يلحقه ويسترضيه ويحتفظ به فى دياره ، وقد ثقل ذلك على عبلة ، ولم تستطع أن تقيم فى هذا الجو المملوء بالكراهية والسخرية والشماتة وطلبت إلى أبيها أن يرحل بها وبأهلها ، فاستجاب لها وذهب إلى بنى عامر ليقيم عند عامر بن الطفيل ، فإذا ما رجع عنترة كلفه أن يصلح بينهما ويغفر لعبلة سيئاتها ، وإن لم يرجع لبث مقيما فى دياره حتى يأتيه أجله ،

فقابلهم ذو الخمار وجبار فى طريقهم ، فقتلوا عبيده وأسروه وأسروا عبلة وأمها وأخاها ، فشمت ذو الخمار بها وقال لها : أين أسودك الذى فنيت فيه واعتمدت عليه فتقول : أنا التى ضيعته وخربت بيتى بيدى ، وليس له ذنب فيما أنا فيه وما هو بقابع فى داره ، ولكنه يغزو أهل السودان ليعين غمرة ويرد لها رجالها ونفوذها ، فقال لجبار : الآن خلت من عنترة ديار بنى عبس ، وأرى أن نغير عليها فى غيبته لنعيد منها المغانم ونحن فى أمن وسلامة من سيف عنترة وبطشه فقال : لا بأس من ذلك ، فإنى مطمئن على ديارى لأن هناك حصناً منيعاً لا يقوى أحد على اقتحامه وبه رجال يدفعون المغير وإن كان فى قوة عاد وثمود ، فقال ذو الخمار : لعلهم يدفعون كل مغير ويردونه على أعقابه نادماً إلا أن يكون عنترة ، فما هم بمفلتين من سيفه . وما اقتحام حصنك بعسير عليه وإن كان كالجبال وما إخاله إلا رجلا حماه رب البيت وأودعه سراً يخوض به المعارك ، ويحيط به الموت فى مخاطرها حتى يعتقد كل أنه لا محالة هالك ثم تنكشف عنه غمتها سالماً فائزاً ويكون قد حصد بسيفه الرجال وبعثر جموعهم على الرمال ، يتلمسون النجاة والهرب بين الصخور والجبال ، وقد لجت فى عداوته لأبلغ شأوه وعلو منزلته فما بلغت من ذلك مبلغاً حميداً ، ولا عرفت ذلك السر الذى يحميه وينصره . فقال جبار : إنه الآن مع غمرة وديارى آمنة من غزوه ، فهيا بنا إلى قومه فعسى أن نغنم منهم مغانم كثيرة .

وأغاروا على مراعى بنى عبس فساقوا أمامهم ما قدروا عليه من إبل وخيل وعبيد ، وما كادوا يبعدون فى الفرار بما ساقوا حتى لحقت بهم فرسان بنى عبس كالأسود ، ووقعت بينهم موقعة حامية دارت على بنى عبس فيها الدائرة ، فقتلوا منهم كثيراً ، وأسروا ملكهم قيسا وأخاه الحارث وجمعاً من الفرسان ، وغر ذا الخمار نصره هذا فتوعد وقال : لن أرجع عن عنترة حتى أقتله وإن تعلق بنجوم السماء ، أما عبلة فسأعلقها عند الحصن من ثدييها حتى تموت ، فقال جبار : لديك أسرى بنى عبس فافعل بهم ما تشاء ما عدا عبلة فقد أحببتها وعولت على أن تكون لى زوجة ، فقال ذو الخمار وكيف تجيز شريعتكم الزواج من امرأة لا تدين بدينكم ؟ ! فقال : إذا طهرناها فى المعبد من أرجاس ملتها حل لنا فى شريعتنا الزواج منها .

فقال : لا أنكر عليك ما تقوله ، ولن أقف فى سبيل رغبتك ، فإنى ضيفك وليس لى عون إلا صحبتك والالتجاء إليك ، وكانت عبلة دائمة البكاء تردد من حين إلى حين : أردت ذله فأذلنى ربه ، واستغنيت بجهلى عنه فأحوجنى إليه ، ثم جدوا فى السير وأرسل جبار رسوله اليهودى إلى قومه ليبشرهم بقدومه ، وهناك التقى بعنترة وقتلته غمرة بعد أن قص عليه القصة ، ورحل عنترة بمن معه يطلبون جباراً وصحبه ليقتلوهم ويخلصوا الديار من شرورهم ويفكوا رقاب الأسرى ويجعلوا منهم موعظة كبرى .

وفى ضحوة النهار تراءى الجمعان فقال عنترة : هذا جمع جبار وصحبه .
وقال جبار : هذه جموع قومى خرجت إلى لقائى ، فرحة مستبشرة . وما
تقارب الجمعان حتى ظهر لذى الخمار عضوب وأبوه عنترة فعرفهم وبدت
على وجهه سحابة سوداء من غم عظيم ، يعتلج فى صدره ، فسأله جبار عن
حاله فقال : إن لم تفعل ما أشير به عليك فسيكون هذا اليوم آخر أيامنا
فى الدنيا ، فقال جبار : لا أكاد أفهم ما تريد ، فقال : هذا الجمع الذى
تراه جمع عنترة ، وإن لم تطاوعنى على الفرار من وجهه أنزل الهلاك بساحتنا ،
فهيا نركب الخيل ونهرب قبل أن يحل بنا العطب ، فقال جبار : عجبت لك
تطمع فى علو شأنك وأنت على ما أرى من الضعف والخوف ، فانتظر حتى
ترى ما سيحل عليه منى ، فقال ذو الخمار : إن القتال فى مواطن الضعف
والغلبة من سوء الرأى وفساد التدبير ، وإن لم نهرب الساعة فلسنا من الموت
بناجين ، فقال : لا تتعب نفسك فى طلب المحال ، فلن أبرح مكانى
حتى أقاتل من أجل عبلة واستخلاصها لنفسى ، فإما فزت بها وإما هلكت
فى سبيلها ، فقال : شأنك وما تريد ، أما أنا فلست بباق مهما يكن من
أمرك ، ثم أخبر أصحابه الذين قدموا معه من مكة بما عزم عليه من الهرب
مبيناً لهم خطأ جبار فى موقفه وإلقائه بنفسه وأصحابه إلى تهلكة محققة ، وفر
ذو الخمار وصحبه ، عنترة بلغه ولكن هربه فأرسل خلفه جماعة على رأسهم أخوه
شيبوب ، وتبعته غمرة وجماعة معها مخافة أن يجد شىء لم يكن فى الحسبان

يكون له سوء الأثر على شيبوب وجماعته .

لم يقبل جبار نصيحة صاحبه وأيقن أنه متغلب على عنترة وقاتله ، وما
لبث أن رأى عنترة هاجماً على الناحية التى فيها عبلة فاعترضه أبوه شداد
ليحمل عنه عبء القتال فلقيه جبار وخالسه وصوب إليه طعنة فى صدره
فسقط ميتاً ، فغضب عنترة لموت أبيه غضبة الأسد وهجم هو وجماعته على
جبار وطائفته هجمة بلبلت أفكارهم وأطارت صوابهم وأكلتهم بسيوفها ،
وأيقن جبار أنه هالك ، فنزل لعنترة واستشفع ، فسخر منه وقال : عجبت منك
أن تقتل أبى على مرأى منى ثم ترجو أن أبقيك حياً وضربه بالسيف ضربة
أطاحت برأسه ، وتفرق رجاله فى أنحاء القفار أذلة هاربين مخلفين ما كانوا
قد غنموا من الأسرى والمغانم . وأسر عنترة كثيراً من رجالهم .

والتقى عنترة برجال قومه الأسرى ومنهم قيس الذى حمد له جميل صنعه ،
وحكى له ما فعله ذو الخمار بهم فى غيبته ، وحكى له عنترة ما لقيه بعد
مغادرته الديار غضبان أسفاً ، وأما عبلة فإنها أقبلت إليه فرحة نادمة فقبلت
ركابه واعترفت له بخطيئتها وشكت له ما حل بها من هوان وذلة بسبب ما
طاوعت هواها والحاقدات عليها وعليه ، وتلقاها عنترة بالعفو والمغفرة
وإقناعها بأنه لن يسلوها ولن يستغنى عنها ما دام حياً ، وبعد أن استراح
قليلا ركب جواده وهمّ أن يخرج إلى الفلاة متبيناً أمر شيبوب وغمرة
ورجالهما ، وما كاد يلوى عنان جواده حتى رأى شيبوب وغمرة وعضوبا

جبار يطعن شداداً أمام عنترة وعبلة فيقع شداد

مقبلين ومعهم ذو الخمار موثقاً فى الحبال ، فوضعوه بين يديه ، وأوجعه عنترة ضرباً بالسوط إذ كان سبباً فى قتل شداد أبيه ، ثم حملوه معهم ورجعوا ، وفى أثناء سيرهم قال شيبوب لأخيه : أول عمل تبدأ به بعد دفن أبيك فى مقابر أسرته أن تقتل ذا الخمار الذى لم نجد فيه إلا الحقد والغدر والخيانة ، والذى لولاه ما قتل أبوك ، ثم تقتل هؤلاء الأسرى من الأعداء واحداً واحداً ، وسمع ذو الخمار ذلك فقال : لا تكن مشعلا لنار الغيظ فى نفوس الناس ، فهلاّ تركته على سجيته حتى يدفن أباه ، فربما خفت وطأة الحزن عليه ، فخفت تبعاً لذلك وطأة الغيظ منى ، فأبقانى أو أمهلنى ولم يعجل بقتلى ؟ ! ! فقال عنترة : تبت يداك أيها اللئيم الغادر ، كيف تطمع فى أن نبقى على رجل لا دين له ولا ذمة ، فتارة نجدك يهودياً ، وأخرى نجدك نصرانياً ، وثالثة نجدك مجوسياً ، وفى كل أولئك لا نجدك إلا خائناً غادراً ، لا ترقب فى إنسان عهداً ولا ذمة ، فدمك حلال لكل من يبغى سفكه .

ولما وصلوا إلى الأحياء وذاع فيها نبأ قتل شداد لبست ثياب الحداد ، وما من بيت إلا بكى حزناً على فقده ، وأمر قيس أن يدفن مع أخيه مالك فى قبره ، وتقدمت سمية زوجة شداد إلى عنترة باكية راجية أن يأذن لها بذبح الأسرى من أعدائها ، فأذن لها أن تذبح منهم من تشاء ، فجعلت تذبحهم يعاونها فى ذلك زبيبة ومازن وشيبوب وميسرة حتى لم يبق منهم إلا

ذو الحمار ، أما النساء اللائى أسرن من حصن خيبر فإن عنترة أمرهن أن يطفن حول قبر أبيه سبع مرات ثم أعتقهن من القتل ، ولبث أربعين ليلة يتلقى وفود المعزين من كل صوب .

وذات يوم أرسل قيس إلى عنترة ، وبعد أن تناولوا بالحديث ما شاءوا جاء ذكر ذى الحمار فأشار قيس عليه أن يقتله ويريح الناس من خيانته ولؤمه ، وقال : عجبت كيف تمهل هذا الخبيث ولا تعجل بقتله ، وهو جرثومة الفساد ، ومنبت الشر الذى يحيق بالعباد ، ويعكر صفو البلاد ، فقال : ما أمهلته إلا لأستشير فى أمره صديقنا وأخانا دريد بن الصمة فهو ابن عمه وزوج ابنته ، ولأنى وعدت هانئ بن مسعود أن أسلمه إليه ليأخذ منه ثأره بيديه ، ولولا ذلك ما أبقيته لحظة واحدة ، ثم أرسل فى الحال رسولا إلى دريد بن الصمة يقول : لما لك من يد عندى أبقيت ذا الحمار حتى أستشيرك فيه ، ولولاذلك لكان من المهلكين ، فماذا ترى فيه ؟ ولبث ينتظر رأى دريد فى ابن عمه ، وفى مدة الانتظار كان مهتما بأمر زوجته سروة ، يود أن يقف على مصيرها أو يعرف شيئاً من أخبارها بعد أن افتقدها شيبوب فى الصحراء وضل السبيل إليها وهى مشرفة على الهلاك من العطش ، وهاك قصتها :

٧

ترك شيبوب سروة ومن معها ليبحث عن ماء ، فلما لم يعد حتى المساء ، أيسوا من عودته واستسلموا لحكم القضاء ، وكانت برودة الليل قد خففت من حدة العطش ، واستراحوا بالنوم الخفيف حتى الصباح ، فأشرف عليهم وقتئذ خمسون فارساً من اليمن ، وكانوا قد خرجوا للكسب جرياً على عادة العرب ، وبين أيديهم ثلاثمائة ناقة غنموها من أرض بنى عامر وجدوا بها فى سيرهم حتى لا يلحقهم أحد من أصحابها ، فلما أشرفوا عليهم وجدوهم فى سكون كسكون الموتى من شدة العطش فعجلوا بسقيهم وإطعامهم ، وأعادوا لهم الحياة سليمة نشيطة كما كانوا ، وكان ذلك من فضل الله عليهم ورحمته بهم. وسألهم رئيس هؤلاء الفرسان عن شأنهم فقال أبو سروة مخفياً أمر زواج ابنته : نحن من بنى الضحاك من بلاد السرو والأراك ، وهذه سروة ابنتى ولم أرزق غيرها ، وقد شربت كئوس المر من أجلها ، وكرهت الحياة بسببها ولم تكن إلا مبعث بلاء وعذاب ، ومنبت قلق وحيرة واضطراب ، فلم تكد تشب حتى أصابها عارض من الجن يتشبث بها كل شهر مرات عدة ، ولم أترك دواء إلا أحضرته ، ولم يشر علىّ أحد بشىء إلا فعلته حتى أفلست وعجزت ، فسرت بها إلى البيت

الحرام فى موسم هذا العام لعلى أجد فى زائريه من أقاصى البلاد ودانيها من يداويها أو يشير علىّ بما يصرف هذا العارض عنها ، ومن سوء بختها أنى حضرت بعد أن انفض الموسم ورحل كل زائر فأقمت فى مكة ثلاثة أيام التقيت فيها بشيخ من شيوخها وشرحت له حالها ، فأشار علىّ أن أسير بها إلى حكيم هوازن لأن له إلماماً بمثل هذه الحالة وكثيراً ما أبرأ غيرها ، فرحلت من مكة واعتسفت الطرق حتى أكون بعيداً عن أذى الطارق ، وسلكت هذه الأرض التى كنت أعرفها مليئة بالمياه والمراعى ، ولكنى وجدتها قد تغيرت وتبدل حالها ، فقد خلت من الماء وأصبحت قفراء جرداء . فخرجت بذلك من غم يطاق إلى غم لا يطاق ، ولبثت فى مكانى هذا نقاسى العطش ونرقب الموت حتى جعل الله إنقاذنا على يديك . فحمداً لله وشكراً لك ، وهذه قصتى عرضتها وأمرنا بين يديك ، فرثى لحالهم وأخرجوهم من تلك الأرض الجدباء وصحبوهم فى سيرهم حتى أشرفوا على ديارهم ثم ودعوهم ورجعوا على أعقابهم إلى حيث يريدون ،

ولما دخل أبو سروة على أهله فرحوا به وسألوه عمن كانوا معه فقال : إنهم تركونى بمكة ، ورحلوا منها قبل رحيلى بمدة ، ولا أدرى لهم مكاناً ، وربما قابلهم فى الطريق من اعتدى عليهم وأزهق أرواحهم ، وكانت ابنته سروة قد حملت من عنترة كما حملت جاريتها سعدى من شيبوب ، فقال أبو سروة لأمها : هذه فضيحتنا بدت فى حمل ابنتك ، وستكون فضيحة

شنعاء إن جاء ولدها أسود كأبيه عنترة ، فماذا نحن فاعلون ؟ ! فقالت : إن الأيام خوانة من وثق بها ، والدهر غير مأمونة صروفه ، وقد كتب علينا ما نحن فيه ، وإن مع العسر يسرا ، والذى أرسل إلينا من أنقذنا من الموت هو الذى يتولى أمرنا ، وعلينا أن نكتم الأمر بقدر ما نستطيع ، فإن بان وظهر بحيث لا نستطيع كتمانه أو الدفاع عنه قلنا إنها أتت بولدها من عنترة بنكاح لا بسفاح وليس علينا من ذلك غضاضة ، فعنترة فارس زمانه ، ووحيد عصره وأوانه ، ولما أوشك حملها أن يظهر أخفوها بحجة أنها مريضة بسبب ذلك العارض الذى لا ينفك يساورها . فلما جاءها المخاض أمعنوا فى إخفائها وقالوا : لقد اشتد بها أمر عارضها ، وكانت سعدى زوجة شيبوب فى مخاضها ليلة مخاض سيدتها سروة ، وجاءت سروة بولد أسود كبير الرأس واسع الجبهة والعينين ، بارز الوجنتين وكان أقرب الشبه بأبيه ، أما سعدى فقد جاءت بولد رشيق القد حسن المنظر ، خفيف الظل ، يحبه من يراه ، ففرحت أم سروة بهذين المولدين وبشرت زوجها بهما فقال : وما نقول للناس فى هذين الولدين ؟ وهذا ابن سروة كأنه عفريت من الجن ؟ ! فقالت : إن سئلنا عنهما أجبنا أنهما من سعدى جاريتنا أتت بهما من عبدنا ميمون ، وهما يعيشان معنا ، كلٌّ فى رعاية أمه وكفالتها ، دون أن يعرف أحد عنهما إلا ما قلناه ، فقال : اختارى ما تشائين ، واجتهدى أن تدفعى عنا كل عار وشين ، وكانوا كلما سئلوا عنهما أجابوا

بما أشارت به أم سروة وقالوا : إنهما جاءا توءمين لسعدى من ميمون ، وذلك تقدير العزيز العليم ، فصدق الناس ما سمعوا ، ولم يجدوا ما يضعف من صدق الرواية ، وجعلت سروة ترضع ابنها سراً ، وإذا ضمته إلى صدرها سمعت له زمجرة كزمجرة السباع ، وإذا منعته الرضاع غضب وهمهم فسمته لذلك الغضبان ، وسمت سعدى ولدها الخذروف ، لأنه لطيف الخلقة سريع الحركة ، ولنعد بك إلى عنترة بعد قتله جبارا وأسره ذا الخمار ، وبعثه الرسول إلى دريد .

* * *

انتظر عنترة عودة رسوله إلى دريد ، فجاءه يحمل إليه : أن اضرب عنق ذى الخمار فإنه خوان أثيم ، ولو أنك قتلته قبل أن تستشيرنى لكان ذلك أهنأ لى وأكثر راحة لفؤادى ، فقال قيس وخاصته : هلم يا عنترة عجل بقتله ، فقد أمرك دريد وهو عنده ظالم غادر يستحق أن يقتل ، فقال عنترة : ولكن رسالته توحى بأنى إن أبقيته أو أمهلت قتله كنت قد وافقت رغبة فى صدره لا يستطيع أن يبديها ، لأن ذا الخمار قد أغلق بأعماله أبواب المجاملة فى وجوه أقربائه ، وإن كانت أفئدتهم لا تزال تندى بالعطف عليه ، ومن الحكمة وحزم الرأى فى مثل هذا الموقف أن أتمهل . وما دام فى أيدينا فلا يضيرنا أن نؤخر قتله ، وسأكلفه رعى الإبل مع العبيد حتى يذل ويخزى ، وربما كان ذلك سبيلا إلى استقامته وطهارة نفسه ،

ثم سلمه إلى أخيه جرير وحذره من التهاون فى أمره ، ونتركه الآن مع جرير يرعى النوق والجمال .

* * *

ظهرت على عنترة أمارات قلق وهم وقبع فى داره ، فجاءه عروة وجماعة من صحبه ومعهم ميسرة وعضوب يسألونه عما أقعده عن نشاطه وركوبه الخيل كعادته . وكان عنده شيبوب أخوه ، فقال : يا بنى الأعمام ، رأيت فى منامى ما يدل على دنو أجلى ، وقربى من الموت الذى لا ينجو منه حى ، فقال عروة : ما رأيت إلا خيراً : وسينعم بك العرب أمداً طويلا من الزمان ، فاقصص رؤياك فعسى أن نوفق إلى تأويلها ، فقال : رأيت كأن قد خرج منى شبل أسود ، ثم تمرغ فى التراب فكان عقاباً ، ثم طار فى الجو كأنه شيطان حتى بلغ عنان السماء ، ثم هوى علىّ بمخالبه فألقانى على الأرض وجثم على صدرى يريد أن يقضى علىّ ، وكأنى مددت يدى إليه لأقضى عليه ، فهمّ أن يطير بى ، ولما أشرفت منه على الموت هممت بقوتى لأدفعه عنى وألقيه عن صدرى فاستيقظت من نومى ، وهذه رؤياى ، وإنها لتوحى بأنى سألقى حتفى هذا العام ، فاغتاظ شيبوب وقال : هذه أضغاث أحلام جاءتنا من كثرة الطعام إلى أن نهذى ولا نفرق بين القعود والقيام ، والدليل على هذا أننى رأيت فى المنام كأن ثعلباً بين قدمى وما كدت أنتبه إليه حتى فرّ ولج فى الهرب فجريت خلفه حتى أدركته ،

فانتفض بين يدىّ إنساناً وجعل يضحك ويقبل رأسى ويدى ، فهممت أسأله عن حاله ، فانتبهت من نومى خائفاً مذعوراً ، وكثيراً ما رأيت مثل ذلك ولا أهتم به ولا أقصه ، فقال عروة : صدقت يا شيبوب ، ولكن ذلك لا يمنع من الحذر والحيطة ، وعلى أخيك ألا يعرض نفسه إلى مواطن الخطر ، لأن العقاب سيف صارم ، والطيور الجوارح حروب ، ولهذا وجب أن تحرسه جماعة كل ليلة إلى أن يتبين لنا الحال فقال عنترة : أريحوا أنفسكم فإن الحذر لا يمنع قدراً ، وما كتبه رب السماء وقدره فهو نافذ لا محالة ، وما أنا بعاجز عن حماية قومى حتى تقوم جماعة منكم على حراستى ، وذاعت هذه الرؤيا بين الأحياء فأصابهم من أجلها غم وخوف ، ولكنها نزلت على عمارة وأتباعه برداً وسلاماً وتمنوا أن تكون صادقة وأن يلقى حتفه .

وبعد أيام دخلت عليه غمرة باكية فسألها : ما يبكيك يا غمرة ؟ فقالت : وددت لو تفى بوعدك وتسير معى إلى أرضى التى انتزعها أهل السودان منى ، وتثأر لى ولأهلى وقومى ، وإن كنت الآن فى شغل بنفسك عنى فإنى أستأذنك أن أرحل ومعى عضوب ابنى ، فهو عدتى وعتادى ، وبه إن شاء الرب القدير تنكشف كربتى ، وتزول حسرتى ، فقال : ورب البيت لأسيرن معك ، ولأكشفن عنك ضرك ، ولأفنين بسيفى هذا كل عدو لك . وأمر أخاه شيبوبا أن يأتيه بعروة بن الورد ، فلما حضر قال له : تأهب للرحيل ومعك من تعتمد عليهم من الرجال ، فقد عزمت

على السير مع غمرة للثأر لها من أهل السودان الذين قتلوا وأسروا أهلها وطردوها من أرضها ، وسيكون ذلك فى غداة الغد إن شاء الله ، وما جاء الموعد حتى كان قيس وعروة وطوائف رجالهما فى انتظاره وبعد أن شدد الوصية على أخيه جرير بذى الخمار ، وبعد أن وصى بعبلة أباها وأخاها — ركب جواده وخرج إليهم ، فسلم على قيس وشكر له جميل معروفه وبالغ اهتمامه ، وطلب إليه أن يعكف هو وجنوده فى الديار لحمايتها ودفع العدوان عنها ، وأقسم ألا يخرج معه فى تلك الغزوة غير عروة ورجاله ، ومازن أخوه وميسرة وعضوب وسبيع اليمن ، وقال : ستسمعون ما يحل بأهل السودان من هلاك وبوار . وعسى أن يكف الربيع وعمارة عن خطيئاتهما ويثوب إليهما رشدهما ، وإلا أطفأت مصباح حياتهما ، وأخرست بسيفى ألسنة شماتتهما الفاجرة ، وخشى قيس أن يفور غضبه فلا يبرح مكانه حتى يقضى على الربيع وعمارة فجعل يذم شأنهما ويرفع من ذكره حتى هدأ ثم ودّع ورحل .

وساروا مخترقين الفيافى والبحار حتى وصلوا إلى صحراء واسعة فأوغلوا فيهـا وبعد يوم وليلة من مسيرهم قال شيبوب لأخيـه : إن فى طريقنا مفازة يقال لها أرض المخافة وملكها غوار بن دينار ، وهو من الجبارين الذين لا يغلبون ، فقالت غمرة : وكيف عرفت هذه الأرض ، وأن ملكها غوار بن دينار ، وأنه داهية ثقيلة الوطأة ؟ ! ! فقال : وكيف لا أعرفها وأهلى وأهلها وأنا وأمى زبيبة وأخى جرير منها ! ولكن القدر أراد

لنا فراقها منذ أمد بعيد ؟ » وذلك أنى لما بلغت من عمرى سبع سنين وقعنا فى يد جماعة من قطاع الطريق ، على رأسهم رجل يدعى بشير بن منير ، فأسرونا وأسروا معنا كثيراً من الأولاد والنساء ، وساروا بنا إلى أرض الحجاز يبغون بيعنا ، وبينما هم سائرون عثروا بجماعة من بنى جديلة فطمع بشير وجماعته فى أموالهم ، وهموا بهم ليقاتلوهم ليغنموا تلك الأموال منهم ، ونشبت حرب دامية انكشفت غمتها عن قتل بشير وتمزيق جماعته والاستيلاء على من معهم من الأسرى ، فساقنا بنو جديلة إلى ديارهم وأقمنا عندهم نرعى لهم أنعامهم ثلاث سنوات ، ثم أغار شداد وجماعته عليهم فى غيبة فرسانهم فساقونا وساقوا أنعامهم وفروا بنا إلى ديارهم ، وكانت أمى من نصيب شداد فرزق منها بأخى عنترة ، ولا تزال أمى تحدثنى أنها من أرض المخافة ، وأنها من أكبر البيوتات فيها ، ولكن الزمن لا تؤمن بوائقه ، ولا تدرى فيه نفس ماذا تكسب غداً ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت ، وذلك تقدير العزيز العليم ، فعجبت غمرة وقالت : لله فى خلقه شئون ، وإليه المرجع والمصير .

ثم استمر شيبوب سائراً بهم فى طرق يعرفها معرفة الرائد الخبير ، حتى كانوا على مقربة من أرض بنى شريف ، فقال شيبوب : اكمنوا فى هذا المكان حتى أسبقكم إلى تلك الديار وآتيكم بخبرها ليتيسر لنا غزوها ، فقالوا : إنا ها هنا قاعدون حتى ترجع إلينا ، وكان قدوم شيبوب على أرض شريف عند الغروب . فوجد المراعى غاصة بالعبيد والأموال ، وكانت

للملك سويد بن عويد ملك أرض شريف ، وأرض غمرة بحد سيفه إذ كان بطلا جباراً يؤازره عشرة آلاف بيت من السودان ، وكان قد أعانه على غمرة غوار بن دينار الذى إذا ركب ركب معه ثلاثون ألفاً .

سلم شيبوب على العبيد وحياهم واختلط بهم ، وأشركوه معهم فى سوق الأموال إلى المضارب ، واستمر معهم حتى نام العبيد وسكنت الأحياء . وكان هو قد تناوم ، فانسل فى ظلام الليل وسكون النوم ، وجد فى المسير إلى أخيه عنترة ففرح وهنأه بسلامته ، وسأله أن يفضى له بما عنده ، فقال : إن القوم غافلون عن الزمن وطوارقه ، ولا يدور بخلدهم أن أحداً يغير عليهم ، وهم مع ذلك فى غنى واسع ، ومراعيهم تعج بالأنعام ، وجنودهم لا يكاد يحصيها العد ، وأرى أن تكون إغارتنا على مراعيهم فى أول النهار ، فنأخذ منها ما نشاء ، وإذا لحقنا أحد منهم فعلت به ما تقدر عليه.

ولما أصبح الصباح خرج عنترة فى خمسة من أصحابه إلى المراعى ، وقامت بينهم وبين العبيد معركة حادة حامية سريعة المصير ، فاستسلم العبيد وتركوا لهم ما لديهم من الأموال ، فأخذوها ورجعوا بها إلى أصحابهم الذين ينتظرونهم فى مكانهم ، وهربت طائفة من هؤلاء العبيد إلى الملك سويد فأخبروه بما أصاب أمواله وعبيده وقالوا لقد رأينا فيهم فارساً يهد الجبال ويفرى بسيفه من لقيه ، فاغتاظ سويد وأمر أن تنفر جيوش السودان وراء هؤلاء الخمسة ليقطعوا رقابهم ويستردوا الأموال من أيديهم ، وقال :

لن أطيق صبراً على ما فعله بعبيدى خمسة رجال لا يلبثون أمام سيفى خمس لحظات ، ثم أمر أن يكون على رأس الجيش ابن عمه ميمون بن رحمون .

ولما رآهم عنترة قادمين إليه أمر عروة وميسرة وعضوبا وغمرة أن يثبتوا وراء ظهره ، ولا يفارقوه بحال من الأحوال ، ليدفعوا عنه أى هجوم يأتيه من خلفه ، وقال ميمون لرجاله المقربين إليه : كيف يهتم سويد بخمسة رجال ، ويخرجنى فى خمسة آلاف لقتالهم ؟ ! ! إن ذلك منتهى الضعف والعار ، فقالوا له دع عنك هذا القول ، ولا تصغر شأن عدوك مهما يكن ضعيفاً ، وإنا لفى شك من قهرك هؤلاء الخمسة ، بل إننا نخشى عليك وعلى جيشك منهم ، فإنهم مردة ، وكأن سيوف أعوانهم لا تعمل فيهم ، وإن نجوت منهم سالماً كنت سعيد الحظ ، فقال : إنكم تقولون بقدر ما فى صدوركم من ثبات ، وسأريكم كيف أسوقهم أذلة صاغرين إلى سويد ، ثم هجم بجيشه واستقبلهم عنترة بسيفه ، وثبت أصحابه يقاتلون من خلفه ، وبعثرت الرءوس والأشلاء ، وملئت رقعة الأرض بالدماء ، وأسر ميمون ، ففزع جنود جيشه من هول مارأوا وفروا مهزومين إلى ملكهم سويد ، وبلغوه خسائر الجيش فى الأنفس وأسر قائده ميمون ، وقالوا : لولا أننا نجونا بأنفسنا لكنا الآن فى عالم الفناء ، فغضب ودعا إليه ابن عمه صاعقة ابن علقم وقص عليه ما فعل بجيشه وقال : اخرج فى عشرة آلاف من الفرسان وائتنى بهؤلاء الأعداء لأقتلهم تقتيلا بعد أن أعذبهم عذاباً وبيلا .

وكان صاعقة فارع الطول ، ضخم الجثة ، واسع الصدر ، وحشى الخلقة ، بشع المنظر ، عظيم القوة ، وهو عماد سويد وعدته فى شدته ، فسأل صاعقة عن عدد أعدائه فقيل خمسة ، فقال : كيف يصغر شأنى لديك فتأمرنى أن أخرج فى خمسة آلاف فارس لخمسة رجال يكفيهم سيفى إذا هززته بيدى ؟ ! ! فقال سويد : ستلقى خمسة رجال فى قوة مائة ألف فارس ، وإنى لأخشى عليك منهم ، ولك عندى ما تشاء إن جئتنى بهم أسرى وخلصت ميمون بن رحمون من أيديهم .

خرج صاعقة فى عشرة آلاف ، وأمامه الرواد إلى مكان عنترة وأصحابه ، وقلبه يتوثب إلى لقائهم ليحملهم إلى ابن عمه سويد ، دون أن يجرد جندى من جيشه سيفاً .

وأشار عنترة على من معه أن يتبعوا الجيش المهزوم ويغيروا على الديار فيطردوهم منها ، فقال شيبوب : كيف تشير بهذا يا عنترة ؟ فقال : وما فى هذا يا شيبوب ؟ فقال : لقد وجدت الديار تزخر بالرجال ، وإن ذهبنا إليهم امتلأت الأرض بهم وأحاطوا بنا من كل ناحية ، ونحن ثلاثمائة ، والكثرة قد لا تجدى أمامها الشجاعة ، ولهذا فإنى أرى أن نكون بعيدين عن ديارهم حتى لا يسهل عليهم المدد فى كل لحظة ، ولا بد أن يخبر الجيش المهزوم ملكه بما فعل به ، ولابد أن يغضب الملك ويثور ويأمر بخروج جيش ثان عدته أضعاف الجيش الأول ، فنحن لا نبرح هذا

المكان حتى يأتينا هذا الجيش فنفعل به ما فعلناه فى سابقه ، فإذا ولى
الأدبار مهزوماً غضب سويد وأرسل جيشاً ثالثاً أقوى وأكثر عدداً ، فإذا
هزمناه وفر من وجوهنا استولى عليهم اليأس والعجز ، وامتلأت صدورهم منا
خوفاً ورعباً ، فإذا ما غزونا الديار إذ ذاك تيسر لنا امتلاكها وطردهم منها
من غير كفاح مرير أو جهد عنيف ، فقال عنترة : رأى سديد ولك منا ما
أردت ، فقال شيبوب : وسيكون امتلاك هذه الأرض أيسر علينا إذا خرج
سويد فى جيشه وقتلناه أو أسرناه ، فقال عنترة : لاعدمنا نصحك ، ولقد
أشرت علينا بما هو أجدى وأنفع ، ولبثوا فى مكانهم يرتقبون الجيوش المقبلة
يوماً وليلة ثم بان لهم جيش جرار تلمع فى غبرته عدة القتال ، يقوده صاعقة
ابن علقم فتهيأ عنترة للقائهم فى تسعة فرسان ، فلما رآهم صاعقة قال لمن معه
من خاصته وكبراء جنده ! هؤلاء عشرة ، وقد قيل إنهم خمسة !! ربما
هرب الفرسان الذين خرجنا من أجلهم بما غنموا ، خوفاً من سويد وجيشه
وهؤلاء العشرة غيرهم. فقيل له : إنهم هم الفرسان الذين خرجنا لهم ، فقال
إذا كان الأمر كذلك فليكن هجومنا بالجيش دفعة واحدة لنعجل بأمرهم
وحملهم إلى الملك سويد ، فقال بعضهم : ألا ترى أن الهجوم بعشرة آلاف
جملة واحدة على عشرة فرسان عار لنا ومسبة ؟ ! فقال : فليطلبهم ألف منا
فقالوا : لا بأس فى ذلك ، وما لبثوا أمام عنترة وأصحابه إلا قليلا ، فقد تلقوهم
بقلوب جريئة قاسية ، وبعد ساعتين فروا إلى قائدهم مذعورين بعد أن

قتل منهم كثير ، فقال صاعقة : كيف يهزمون ويفرون وليس أمامهم إلا
عشرة رجال ؟ ! فقالوا : وإنهم لقادرون على أن ينكلوا بالجيش جميعه وإن
أمددته بمثله ، فأمر صاعقة فى الحال جيشه أن يهجم عليهم من كل جانب
وقال : وسأكون معكم . ولكن أين الثريا من الثرى ؟ وأين كلاب الحى من
أسود الشرى ؟ فقد وقعت بجيش سويد الواقعة واستحر القتل برجاله . وقتل
صاعقة قائده ، وجاء الليل وهم هاربون ، والتقوا بالملك سويد وقالوا : هذه
حالنا تغنى عن القول ، وقد قتل صاعقة ، فاغتاظ سويد وسألهم : هل
عرفتم من أى قبيلة من قبائل العرب هؤلاء الفرسان ؟ فقالوا : كنا نسمعهم
يقولون : يا لعبس ! ويا لعدنان ! وفيهم فارس كأنه من مردة الجن يدعى
عنترة بن شداد وكان علينا كأنه كسف من السماء ، فقال : صدقتم ،
ويبدو لى أن غمرة بعد أن ملكنا أرضها وفرت هاربة من وجوهنا لاذت ببنى
عبس وعدنان وجاءت بهم لتسترد ما أخذناه منها . وأمر أن يجهز جيش
عظيم ليخرج هو فيه إلى هؤلاء الفرسان ، وركب جواده وتأهب للخروج
إلى لقائهم ، ولكنهم ما لبثوا أن رأوا غبرة لجيش زاحف عليهم ، فاستعدوا
للقائه بعد أن تبينوا أمره ، فلما عرفوا أنه جيش ابن عمه منيع بن مناع
اطمأنوا واستبشروا بنصر عاجل ، فلما سلم عليه منيع سأله عن هذه الجموع
التى أعدت وتأهبت ، فحكى له سويد ما فعله عنترة ورجاله بقومه وجيوشه
وأسرهم ميمونا وقتلهم صاعقة ، وأنه متأهب للقائهم بجموعه ، فقال

منيع : وكيف تخرج أنت إليهم وأنا حى أرزق ؟ ! فدعنى أخرج إليهم ، وسأبيدهم أو أحملهم إليك مقيدين .

وفى هذه المدة أقام عنترة فى مكانه هو وجماعته للراحة ، وجعل يتحدث إلى غمرة ويسألها عن عدد أهل السودان وكيف طردوها من أرضها ، فقالت : إن سويدا هذا له من الجنود والرجال ما لا يحصيه العد ، ولما مات أبى وغضب ابنى عضوب وغادرنى إلى البيت الحرام حزنت حزناً شديداً ومرضت مرضاً أقعدنى وأبطل نشاطى ، وكان سويد يوالى غزواته فى كثرة من رجاله ، ثم استعان علىّ بملك من ملوك السودان يدعى غوار بن دينار فقتلوا رجالى ونهبوا أموالى فانطلقت من ديارى هائمة . — وكان ميمون يستمع لما تقول — وساقنى القضاء إلى البيت الحرام ، وحمدت الله الذى جمعنى فيه بزوجى وولدى . وما أتمت غمرة حديثها حتى سمع لميمون هذا صرخة عالية ، فسأله شيبوب عما به فقال ، هل لك أن تخبرنى عن الأميرة غمرة وحالها وما جرى لها حتى اجتمعت بكم ؟ ! فقال شيبوب : إنها الأميرة غمرة بنت الملك فايز وصاحبة هذه الأرض ، فقال : وما صلتها بعنترة ؟ فقال : زوجته وأم عضوب ابنه ، فقال : ما كنت أعرف أنها غمرة بنت الملك فايز القضاعية إلا فى هذه الساعة ، وإن لأبيها عندى يداً لا أنساها ، فقال : وكيف ذلك يا ميمون ؟ ! فقال : كان الملك سويد قد سمع فىّ وشاية الواشين وهمّ أن يقتلنى ففررت منه إلى الملوك لائذاً

بهم ، وما جرؤ أحد منهم على حمايتى إلا أبوها فايز بعد أن قصصت عليه قصة فرارى وهربى ، فأكرمنى وجعلنى من أعز أحبابه ، وكان الملك سويد قد عرف براءتى وأنه ليس لى ذنب إلا وشاية الواشى زوراً وبهتاناً. فأرسل إلى فايز أبيها رسله يطلبنى ويؤمننى لأنه أيقن ببراءتى ، ففرح فايز بصلاح أمرى مع الملك سويد ورحل معى إليه فى طائفة من قومه ، ووصاه أن يكرمنى ولا يستمع لقول واش فىّ ، ولما مات أبوها حزنت عليه حزناً عظيماً ، ولم أكن فى البلاد وقت أن أغار عليها سويد ، ولما رجعت من أرض المخافة التى كنت متغيباً فيها وبلغنى ما جرى على غمرة ضاقت الدنيا فى وجهى من الغم وجعلت أسأل عنها لعلى أجدها فأقدم لها ما أستطيعه من معونة ، فلم أعثر عليها ولم أسمع خبراً عنها ، وأحب الآن أن أكون صنيعتك بأن تأخذ لى الأمان من أخيك عنترة على أن أكون لكم ما دمت حياً ، ففك شيبوب قيده وسار به إلى أخيه عنترة ، وقص عليه ما سمعه وقال : وقد أعطيته الأمان بعد أن أقسم أنه لك ما دام حياً ، فقال عنترة : وقد أعطيناه عهدنا ، وجعلناه منا كأحدنا ، فشكر ميمون له جميل صنعه وقال : يا أبا الفوارس ، تحت يدى وفى طاعتى ألف فارس من بنى عمومتى وقرابتى ، وأرى أن أسير إليهم لأجعلهم فى جيش سويد من ضمن أعوانك ، وإذا سألنى : كيف تخلصت من أسرك قلت له : كسرت قيودى وفررت خفية ، فإذا دعانى للقتال معه خرجت فى جماعتى مع جيشه ، ووصيتهم أن ينضموا

إلى صفوفك إذا ما قامت الحرب بينك وبينه ، فقال عنترة : لك ما شئت فاذهب مع السلامة ، فقال : وأرجو أن تأذن لى قبل رحيلى أن أعتذر لغمرة ، فأحضرها عنترة وأكب ميمون على يديها لثماً واعتذاراً ، ثم رحل وصدر عنترة قد ملئ ثقة به وحسن ظنه فيه ، فالتقى فى طريقه بالأمير منيع بن مناع ، فسأله كيف خلص من أسره ؟ فقال : كسرت قيودى وفررت خفية ، فأحسن إليه ومنحه جواداً فركبه وسار به إلى سويد ؛ فلما رآه القوم فرحوا وطيروا خبره إلى الملك سويد فأحضره بين يديه وسأله : كيف نجوت من عنترة ؟ فقال : هربت خفية بعد أن كسرت قيودى ، فهنأه بسلامته وأمره أن يذهب إلى مضاربه وخيامه ليفرح به أهله ، وبعد أن يستريح يتبع جنده فى جماعته لقتال عنترة ، فقال سمعاً وطاعة ، وهناك قص على أهله وذويه قصته وأخبرهم أنه الآن من أتباع عنترة ، وبيّن لهم أنه فارس لايطاق ، وأنه لامحالة متغلب على سويد وقاهر جيوشه ، وأنه سيعيد أرض غمرة إليها ، ومن الخير لنا أن نفى بعهده ، وأن نكون من أعوانه ، وإن لم نفعل ذلك فقد حل بنا الفناء ، فاستجابوا لقوله ، وعقدوا معه العهود والمواثيق أن يكونوا لعنترة أنصاراً ، وكانوا ألف فارس ، فقال : هيا بنا نلحق عسكر سويد لنفى لعنترة بما وعدناه ، وساروا حتى انضموا إلى جيش سويد الذى خرج فى أثر جيش منيع بن مناع .

سار منيع بن مناع وهو موقن أنه غالب عنترة وجماعته ، وسائقهم فى

القيود إلى سويد فى لمح البصر ، حتى ظهرت له خيام عنترة ، ولما رأى أن مائة فارس متأهبون للقائه وقتاله قال لأصحابه : يقول سويد إن عدتهم عشرة ، وإنى أراهم الآن نحو مائة ! ! ! وسواء علينا أكانوا مائة أو عشرة فإنى مهلكهم أو آسرهم قبل أن يصل إلينا سويد ، وسأقوم بذلك وحدى ، وما عليكم إلا حماية ظهرى ، فإن أحدق بى خطر أسرعتم إلى كشفه عنى ومساعدتى ، وكان وصوله عند المساء فنزلوا فى مكانهم مرتقبين صباح الغد ؛ ولما جاء الموعد ركب منيع جواده وبرز إلى الميدان وقال : يا فرسان الحجاز ، لقد تعلمون أن المبارزة إنصاف وشجاعة ، وأنا منيع بن مناع حامية هذه البقاع ، وسيف الملك سويد ، وقد نذرت له ألا أترك منكم أحداً يرجع إلى دياره يراه أهله وأولاده ، فليبرز بطلكم عنترة لأمنحه ضربة تفلق رأسه وتطوى حياته ، فما لبث أن كان عنترة قدامه كالأسد الكاسر وقال : ثكلتك أمك ، وما أضلك من فارس خاسر ، فقد عدوت إلى حتفك ، وانسقت إلى مصيرك ، وما ظلمناك ولكن ظلمت نفسك ، ثم أطار رأسه بسيفه فغرق فى الدماء ، وعدا بجواده إلى جيشه ومن ورائه أصحابه وجعلوا يحصدونهم حصدا ، فلم يستطيعوا ثباتاً ، وارتدوا هاربين مخلفين أسلابهم ، وعاد عنترة وصحبه إلى مكانهم فائزين ، وقالت غمرة : لم يبق لسويد بعد الأمير مناع إلا أن يركب إلينا هو نفسه ، فى عدد عديد من بنى جنسه ، فقال عنترة : اطمئنى وقرى عينا فلن أبقى لك على ظهر الأرض عدواً يناوئك .

كان سويد يسير مطمئناً ، لأنه موقن أن منيع بن مناع لن يغلب ، وهو يرتقب البشير الذى يبشره بنصره ، وبينما هو فى حلمه اللذيذ إذا جنوده يتدفقون عليه من كل ناحية وأمارات الهزيمة فى وجوههم بادية ، فانتبه من حلمه مذعوراً وقال لهم : ما لكم رجعتم مضطربين ؟ ! فقالوا : ذقنامن مرارة القتال ما لم يذقه جيش ، وفرقنا عنترة أيدى سبا ، بعد أن قتل كثيراً منا ، ولو بقينا أمامه لقضى علينا ؛ فقال : وأين ابن عمى منيع ؟ فقالوا : لم يلبث أمامه لحظة وأغرقه فى دمائه ؛ ومعه مائة فارس لا يقلون عنه شجاعة وبأساً ؛ فقال : تبت أيديكم ، وما أضعفكم إلا ابعدى منكم ، ولو كنت فيكم من أول غزوة ما تركت منهم فارساً حياً ، ثم استأنف سيره إلى عنترة فى جيشه . ولا يدرى ما خبأه له القدر من نائبات وكوارث فقد التقى بعنترة ونشبت بينهما حرب ضروس كانت وبالا عليه وعلى جيشه فقد أسر أسراً ذليلا ، ومزق جيشه تمزيقاً ، وفر إلى الديار مهزوماً ، وصدق ميمون وصحبه ما عاهدوا عنترة عليه من القتال معه فأبلوا فى معونته بلاء حسناً ، وسار عنترة يتعقب الجيش المهزوم حتى دخل هو وجماعته ديار غمرة فقبضت على ناصيتها ، ورجع إليها سلطانها ، والتف حولها من جنود قومها أربعة آلاف فارس . وبعد أن نزلوا واستراحوا أحضر عنترة سويدا وسأله : من أغراك بغمرة ودفعك إلى محاربتها وطردها من ديارها؟ فقال : أغرانى قوتى وكثرة رجالى ، ولا أزال طامعاً فى ديارها ، وسترون ما

منيع بن مناع وعنترة يتبارزان

يحل بكم من رجالى ، وحينئذ لا ينفعكم ندم ولا تنجيكم شفاعة. فابتسم عنترة ابتسامة أسد يداعب فريسته قبل أن يمزقها بأنيابه ، وما أطاق عضوب صبراً على ما قال ، فجرد سيفه وأطاح به رأسه ، فقال أبوه : لقد عجلت بقتله وكنت أود أن أبقيه إلى حين ، وما كان لقوله هذا أثر فى نفسى ، فهو رجل ابتلى فى نفسه وجيشه وليس ببعيد أن يهذى فى قوله ، فقالت غمرة : إن الأرض مملوءة بأهل السودان ، ولا تزال تغريهم كثرتهم ومن يؤازرهم من الملوك على قتالنا ، وأمامى الآن ملك صعب المراس ، إن ظفرنا به ملكنا الديار ونحن فى أمن وسلام ، ذلك الرجل يدعى لون الظلام ، وهو عماد الملك غوار بن دينار وسيفه ، فقال عنترة : سيرى بنا من صباح الغد إليه ، فلست بقاعد حتى أطهر الديار من كل خصيم معاند ، وسار بها فى جيش كبير وشيبوب رائدهم حتى وصلوا إلى جبل الخزام ووادى الغمام ، فوجدوا خياماً ورجالا على ظهور الخيل ، وهم سود الوجوه فى حمرة ملتهبة يقدمهم الملك لون الظلام على جواده كأنه شيطان فى صورة إنسان .

وكان استعداده للقتال لأن بعض الفارين من جيش سويد حضروا إليه وأخبروه بما جرى وقالوا : إن غمرة هى التى فعلت بنا ما فعلت ومعها عنترة ابن شداد وهو الذى قتل صاعقة وسويدا وهزم الجيش ونصر غمرة ، فقال لقد كنت عزمت هذا العام أن أغزو بلاد الحجاز لأقتل عنترة هذا الذى طبق ذكره الآفاق ، ولكن قد هان علىّ الأمر وحضروا إلى ديارنا ،

وسأذهب إلى قتلهم وقتل غمرة التى جاءت بهم ، وسار فى أربعين ألفاً من السودان عليهم ثياب حمر ، وعلى رءوسهم طراطير قد علق فيها أذناب الثعالب والودع والأجراس حسب عادتهم إذا خرجوا للقتال .

دارت المعركة بين الطائفتين على أشدها ، ومرت بجيش لون الظلام ساعة من ضيق وعسرة ، كان جنده يتناثرون فيها تناثر الورق الخفيف مرت به ريح عاصف ، وسدت فى وجوههم أبواب الأمل والرجاء ، وأسر لون الظلام وسيق إلى معتقله ذليلا ، وجاء الليل وسكتت الحرب وأوت كل طائفة إلى مستقرها فى انتظار الصباح لاستئناف القتال .

وبينما عنترة مستريح فى خيمته إذ أقبلت إليه غمرة قائلة : جئتك الليلة بشىء لم يكن فى البال ، وربما قرب إلينا الانتصار وجعل لنا قوة من الأعوان فوق قوتنا ، فقال : وما ذاك يا غمرة ؟ فقالت بينما أنا مستريحة فى خيمتى سمعت لون الظلام فى معتقله يئن ويبكى ، فأثار ذلك عجبى ، وذهبت إليه لأتبين بكاء هذا الفارس الذى لا يتأثر بالحوادث مهما يكن من شدتها وقسوتها ، فقال لى : أرجو أن تتفضلى علىّ بالمعونة لإخلاء سبيلى على أن أكون يدك التى تبطشين بها وسلاحك الذى تعتمدين عليه ، ومعى فى ذلك رجالى وفرسانى ، فقلت : قد أكون لك كما رجوت ، ولكن أخبرنى عما أوجعك وأبكاك وما عهدناك إلا شهماً صبوراً لا يزعجك حادث مهما يبلغ من شدته ، فقال : اعلمى أيتها الأميرة أن لى ابناً يدعى صفوان

ويلقب ببدر التمام ، وهو محط آمالى ومبعث نعيمى أو شقائى ، علق فؤاده
بأعجوبة الأنام بنت الملك همام صاحب الأرض ذات الأعلام ، وقد براه
السقام ، وحرم من أجلها لذيذ المنام ، وكنت هممت أن أسير اليه وآخذ ابنته
غصبا ولكن حال دون ذلك تلك الحرب التى حكم القضاء علىّ بأن أصلى
نارها الحامية ، وأود الآن أن أخفف عن ابنى أعباء الهوى وأثقاله ، وما أنينى إلا
من أجل ابنى ، وبودى أن تكونى رسول سلام إلى عنترة ليعفو عنى على
أن أكون أنا وجنودى ومن فى حكمى من أهل السودان له تبعاً ، وأن أكون
قوة فى جيشه إذا ما تحرك غوار بن دينار لقتاله ، — قالت غمرة — وقد
رأيت ما قاله فى مصلحتنا فجئت لأعرضه عليك ، فقال عنترة : أحضر به
حتى أسمع منه ، وبعد ذلك يكون ما أرى ، فشرح لون الظلام مسألته ،
وأعطى ميثاقه ، فقال عنترة : لا قيمة لعهد أو ميثاق إن لم يكن مبعثه
الصدق والإخلاص ، ومن يدرينى أنك من الصادقين المخلصين ؟ فقال
لون الظلام ، ورب الكون الذى يقول للشىء كن فيكون إنى لصادق فيما
أقول ، وعلىّ غضب الله إن كنت من الكاذبين ، ولا أخفى عليك يا حامية
بنى عبس أنى أرسلت إلى أبيها رسولا يخطبها لابنى فقتله ، وقد كنت عولت
على أن أسير إليه لأثأر منه لرسولى وآخذ ابنته رغم أنفه ، ولكن جرى بينى
وبينكم ما جرى من تلك الحرب التى لم أجد مثلها فى حياتى ، والتى ستكون
أول عزتى وهناءتى إن أنت مننت علىّ بقبولك لى معيناً ونصيراً ، فقال عنترة

وقد بان له صدق عهده وميثاقه : قد عفوت عنك وأدخلتك فى ذمامى ،
وسآخذ لك بثأرك ، وأمنح ابنك فتاته التى يحبها رضى أبوها أم سخط .

وكان بدر التمام قد حزن لأسر أبيه فجمع ذوى الرأى من قومه
يستشيرهم فيما يفعلون ، فأشار عليه بعضهم أن يوقدوها حرباً طاحنة تأكل
الرجال وترد الأسرى ، فقال بدر التمام ذلك وهم لا وجود له إلا فى عالم
الخيال ، ومحال أن نبلغ من فرسان الحجاز بالقوة ما نريد ، فهم لا يغلبون ،
وأرى أن أسير إليهم طالباً أن نكون فى ذمامهم ومن أتباعهم ، فأفكّ بذلك
رقاب الأسرى ورقبة أبى ، ثم أتوسل إلى عنترة أن يساعدنى فى زواجى من
فتاتى ، فهو فارس شهم مشهور بفضله ومروءته ، فقالوا : ذلك أقرب إلى
الصواب ونحن معك فيما تختار .

وكان بدر التمام عند عنترة يستأذنه فى الرحيل إلى دياره ، بعد أن شرح له
قصته ، ووعده أن يزوجه من فتاته ، وأنعم عليه وعلى أبيه ومن معهما بالهبات
الغالية ، ثم ساروا جميعاً إلى ديار الملك لون الظلام ، وسبقهم إليها فرسان للملك
وأذاعوا فى أنحائها ما تم بين عنترة ومليكهم من عهد وميثاق ، ففرحوا
وأخذوا فى الأهبة والاستعداد لاستقبال مليكهم وعنترة وبنى عبس .
وضربت الخيام ، وبالغوا فى مظاهر الإكرام ، وأعلنوا صادق الولاء .
ولبثوا على هذه الحال يومين وثلاث ليال مليئة بتوكيد ما تعاهدوا عليه من
تعاون وصداقة وإخاء . ثم انتقلوا إلى مكان يدعى روضة الرياض ، فيه من

كل فاكهة زوجان ، وضحكت أرضها عن زهر وريحان ، وانسابت فيها الجداول يداعب النسيم من حولها أغصان الأشجار ، فأقاموا فى نعيمها حتى بانت لهم غبرة لطوائف متدفقة فى سيرها تدفق السيل تبلغ عدة رجالها نحو تسعين ألفاً ، فامتطوا خيلهم واستعدوا للقائهم . وكانت هذه الطوائف لغوار بن دينار .

وذلك أن أحد المهزومين من جيش صاعقة ويسمى قسورة بن جوهرة فر إلى أرض المخافة ، وحكى لملكها غوار بن دينار ما فعل بنو عبس من قتل صاعقة وهزيمة جيشه ، وأنّ ذلك بتدبير غمرة التى جاءت بفرسان من الحجاز على رأسهم عنترة بن شداد وجاءه حينئذ كتاب من الملك سويد يستنصره ويرجو أن يدركه ولما يمزق ، فهم أن يرحل على رأس جيشه لينجد سويدا وينكل بغمرة التى مهدت لفرسان الحجاز السبيل إلى أرضها ولكن بعض وزرائه أشاروا عليه أن يقعد ويرسل على رأس جيشه وجه الغول ابن أبى القرون ، وهو الذى قهر غمرة وطردها من أرضها بعد موت أبيها ، فأحضره ووصاه ألا يتهاون فى القتال ، فقال : سآتيكم بفرسان الحجاز مكبلين فى أغلال الأسر والخزى المبين .

ولما بان هذا الجيش لبنى عبس ومن معهم هبوا سراعاً إليه ، والتحم الفريقان ، واشتد الضرب والطعان وتلظت نار القتال وماج بحر المنايا وغرق فيه كثير من جنود وجه الغول ، ودامت هذه الحرب على أشدها ثلاثة أيام

كانت سوداً وبلاء على وجه الغول وجيشه ، فقتل قائده الأكبر الدهاش ابن الرعاش ، وقتل وجه الغول ، وتفرق جيشه فى البيداء هرباً ، وقد أبلى لون الظلام وأتباعه فى هذه الحرب بلاء حسناً ، وأعانوا عنترة معونة صادقة كريمة ، وشكروا لعنترة مجيد كفاحه وهزيمته هذا الجيش العظيم ، وفى صبيحة اليوم التالى ليوم الهزيمة خفوا سراعاً يتتبعون المهزومين وكلما مروا بحلة نهبوها حتى أشرفوا على أرض تسمى سحر الحيات ، ذات غدران ومروج خضراء ووحوش تمرح فى جنباتها ، وتهتز أجواؤها بزئيرها ونعيقها ، فأشارت عليه غمرة أن ينزل فى هذا المكان لتريه شجرة أزلية عظيمة فيه ، عليها طيور من كل جنس ، وفيها سر لا يعلمه إلا الله الذى أنبتها ومد فى عمرها ، فقال : وما ذلك الأمر العجيب الذى خفى سره ؟ فقالت : إذا جاء التجار حطوا بضاعتهم تحتها وتركوها ، فإذا باتوا ليلتهم وجاءوها فى الصباح وجد كل تاجر بضاعة بجانب بضاعته من جنس ما تحتاجه بلاده فإن رضى بهذا العوض أخذه ، وإلا أخذ بضاعته ورحل ، فقال : وماذا يجرى فى البضاعة التى تركها التجار ؟ فقالت : لا يعرف أحد عنها شيئاً ، ولا يدرى من يأخذها بعد تركها ، فعجبوا من تلك الشجرة وطلبوا منها الذهاب إليها ووضع شىء من بضاعتهم تحتها لينتظروا ماذا يكون ، فقادتهم إليها ووجدوها من الكبر والعظم والامتداد بحيث تظل ألف رجل ، ثم وضعوا تحتها قماشاً ونزلوا بعيداً عنها ، وفى الصباح وجدوا أمتعة بجانب

أمتعتهم فأخذوا الأمتعة وتركوا قماشهم ورجعوا إلى خيامهم وهم فى حيرة من تلك الحال العجيبة .

انتظر غوار عودة وجه الغول ومعه عنترة وصحبه فى قيود الأسر المهين ، حتى جاءه المهزومون تباعاً وأخبروه بقتل وجه الغول وفارسه الأكبر الدهاش وهزيمة الجيش هزيمة منكرة . ووصفوا له ما لاقوه من قتال لم يخطر لهم على بال ، وقالوا : إن هؤلاء الحجازيين تحسبهم رجالا وما هم برجال ولكنهم مردة من الجن لا يطيقهم أهل الأرض وإن اجتمعوا على ضرهم ، فرجف قلبه حيرة وخوفاً وقال : لقد فرطت بقعودى عن مصاحبة الجيش ولو كنت معه ما ولى مدبراً مهزوماً ، وهذا أمر خطير ليس له إلا أن أخرج إليه فى جميع الرجال والفرسان ، فهم لن يغلبوا إلا بالكثرة وقسوة الهجوم عليهم من كل ناحية ، فقال قسورة : إن فيهم عنترة بن شداد الذى يحصد بسيفه الرجال حصداً ، ولن يستطيع إنسان أن ينال منه نيلا ، وهو الذى قتل بسيفه وجه الغول وغيره من الفرسان البارزين ، ومعه لون الظلام وأتباعه ، وقد أنذرنا هجوماً عنيفاً على أرض المخافة ليبتدر رجالك ويضيع ملكك ويقضى عليك القضاء الأخير انتقاماً لغمرة التى نسى معروف أبيها ، وأغير عليها بعد موته ، وطردت من ديارها ، وأمرنا أن نخبرك بهذا لتأخذ حذرك وتستعد للقائه حتى لا يأخذك على غرة ، فهو أكبر من أن يبغت الناس ويأخذهم على غفلة ، فاضطربت أعصابه وقال : لا بد من قتله وإبادة

رجاله والانتقام من غمرة التى كانت سبباً فى مجيئهم إلينا وتعكير صفو الأمن والسلامة فينا ، ثم جمع أكابر دولته وأخبرهم بكل هذا وطلب إليهم أن يجمعوا أمرهم على قتال مريريبيدون به هؤلاء الأعداء ، فاختلط عليهم الأمر ؛ فمن محبذ للقتال ومن خائف من مصيره طالب التماس وسيلة غيره ، وقال رجل من بينهم يدعى قرة العين بن عقيق وهو الوزير المشير : يحسن أن ترسل إليه رسولا فصيحاً حكيماً ، ليتحدث إليه ويرجعه عما عزم عليه ، ويحذره مصيره ، فإذا عاد الرسول إلينا دبرنا أمرنا على ضوء ما سمع منه وعرف ، فقال : لتكن أنت الرسول ، واجتهد أن تبغضه فى الحرب وتحذره مصيرها وأخبره أنا على استعداد للمسالمة ، على أن نرد إلى غمرة أرضها وما أخذناه من أموالها وإن كان عقال بعير ، على شريطة أن تدفع الخراج إلينا كل عام ، فقال الوزير : وسأكتب إليه كتاباً عن لسانك أحمله معى إليه ، فلما كتبه قرأه على الملك وختمه بخاتمه بعد أن رضيه ووافق عليه ، ومما قال فيه : « لقد أغضبتنا بفعالك ، وإن لم ترجع إلى رشدك ، وتكف عن الناس شرك — فسوف تلقى حتفك ؛ واعلم أنى ما غزوت بلاد غمرة إلا بعد أن اعتدت علينا ، وبدأتنا بشرها وعدوانها ، وإذا أنت رجعت برجالك إلى ديارك رددت إلى غمرة أرضها وأموالها ، على أن تدفع الخراج إلينا كل عام ، وهذا نذير لك ولصحبك ، ولك الخيار فيما ترتضيه لنفسك » . فرضى عنه الملك وودع الوزير وجماعة من كبار الدولة معه . وكان عنترة قد جعل

حراساً حول منازل جيشه ، فلما وصل إليهم وزير الملك وجماعته سألوهم
عما يريدون فقالوا : نحن رسل الملك غوار بن دينار إلى عنترة ، فحبسوهم
فى مكانهم حتى يستأذنوا عنترة فأذن لهم ، وأكرم لقاءهم ، وأجلسهم
بجانبه ، ثم سألهم عما جاءوا من أجله ، فقال الوزير : نحن رسل الملك
غوار ، وهذا كتابه إليك فقال خذه يا عروة واقرأه علينا ، فلما انتهى من
قراءته ضحك عنترة وبالغ فى الضحك وقال : يحق لملكك أن يكتب هذا
وأكثر لأنه مغرور ضال ، ولأجعلن دياره أطلالا تنعى أصحابها ، ثم أخذ
الكتاب من عروة وقطعه وألقاه فى وجه رسول الملك ، ففزع هو وجماعته ثم
قال : إن الملك سيرد إلى غمرة أرضها وأموالها وسيادتها على أن تدفع إليه
الخراج كل عام ، فقال عنترة : أسرع بالذهاب إلى صاحبك وقل له :
نرضى أن يحمل هو إلى غمرة الخراج كل عام ، بلغه أنى راحل إليه فى
إثرك ، وكان قوم الملك يظنون أنه أنجز الأمر على خير ما يريدون فاستقبلوه
ونفوسهم مشرئبة إلى ما يحمله لهم من البشرى ، ولما كان بين يدى مليكه
غوار فى مجلس من كبار دولته سأله عما جاء به فقال : حتى آخذ الأمان
لنفسى وصحبى ! فقال : هات ما عندك على أى وجه تريد ولا تثريب
عليك ، فقال : وجدت فارساً فارهاً معتداً بنفسه وشجاعته وقوة رجاله ،
ولا يرى إلا أن ينزع الملك منك ويخرب الديار ، فنهض من بينهم عكاش
ابن رياش وأنكر على عنترة وعيده وقال : أرسلنى أيها الملك فى جيش إليه

وأنا به زعيم ، فقال الملك وهو غاضب مكروب : فلتذهب إليه فى مائة ألف
فليس لهذا المغرور إلا أنت ، ثم سار فى جيش عظيم إليه ، وكان
عنترة قد أوفد أخاه شيبوبا فى أثر رسول الملك ليأتيه بأخباره ، وما عزم عليه ،
فلما جاءه أخبره بما استقر رأيهم عليه ، فقال عنترة : خاب فألهم ، وضاع
مايرجون ويأملون. وأمر أصحابه فهبوا وساروا إلى لقاء عكاش بن رياش وجيشه
فلما التقيا ، ونشب القتال بينهما وجد عكاش وجنده من عنترة ورجاله
ضروباً من القتال ملأت قلوبهم رعباً فلاذوا بالفرار هاربين ، وقتل عكاش
قائدهم وفنى كثير من جيشه ، وبينما غوار جالس على عرشه ومعه رجال
دولته إذ بوفود المهزومين تترى وعليهم أمارات الفزع والخوف ، فقصوا عليه
ما رأوا فعجب أن يغلبوا وفيهم عكاش ومعه جيش يهد بكثرته الجبال هدا ،
فقالوا : ما سمعنا بمثل ما رأينا ، ولقد أمسك عنترة عنق عكاش بيده ونزع
رأسه من جسده نزعاً كأنه يقلع رمحاً مغروزاً ، فقال : ليس لهذا الفارس إلا
عندم بن بسام وكان بالغ الطول ضخم الجثة عظيم القوة إذا هز الرمح بيده
قصفه ، وإذا أمسك ذنب الجمل الهائج وقفه ، فأحضره وقص عليه ما
بلغه عن عنترة وما هو طامع فيه من نزع الملك وتخريب البلاد ، وأمره أن
يذهب إليه فى مائة وخمسين ألفاً ، وعلم عنترة بهذا من أخيه شيبوب فقال لصحبه :
التدبير الحكيم نصف القوة ، وقد رأيت أن نلقى جيش غوار القادم إلينا على
النحو الآتى : يقسم جيشنا أربع فرق ، ثلاث فرق تقوم الآن وتكمن على

جانبي طريق الجيش المغير ، بحيث لا يراهم أحد ، واتركوا لى الفرقة الرابعة ،
وسألقى الجيش بفرقتى مخفياً نفسى حتى أستدرجه إلى الأمام ، وفى لحظة
واحدة تطبق الفرق الثلاث على الجيش من اليمين والشمال والخلف ، فإذا ما
انحصر الجيش واحتدم القتال وأخذ الأعداء من كل جانب ظهرت فيهم ،
وأنزلت بهم الويل والثبور ، وسأعجل بقتل قائدهم ، وإذ ذاك لا يكون
لجيشهم ثبات فيتلمسون النجاة فى منافذ الصحراء ، وكان لعنترة ما أراد
من نصر مبين بعد أن قتل القائد وكثيراً من الجند وفر بقية الجيش مهزوماً
إلى الملك غوار بن دينار .

كان غوار ومن معه غارقين فى حلم لذيذ من أمل واسع فى انتصار
عاجل ، وبينما هم جالسون يتحدثون ويتشاورون فيما يفعلونه بعنترة إذا
جاءهم أسيراً — إذ بفلول جيشه يهرعون إليه فى خيبة وحسرة ، فقالوا :
أهلكنا عنترة وقتل قائدنا عندم بن بسام ، فغضب غوار وقال : ليس لهؤلاء
العرب إلا أن أخرج إليهم فى جيش ماض لا يبقى ولا يذر ، وأمر أن تجمع
الجموع من كل قبيلة ومن كل حى للقضاء على عنترة ومن معه من عرب
الحجاز وأعوانهم .

أما عنترة وجنوده فقد أقاموا فى أماكنهم للراحة غانمين ظافرين . وبينما
هم كذلك إذ أقبل عليه صفوان بن لون الظلام ورجاه أن يفى بوعده وأن
يجمع بينه وبين أعجوبة الأنام بنت الملك همام ، فطمأنه عنترة وقال :

سنسير الآن إلى الأرض ذات الأعلام لأمكنك من فتاتك ، فنهضت
غمرة قائلة : إنك لن تستطيع ذلك أبداً ، فقال : ولم ذلك يا غمرة ؟
فقالت : فى الأرض ذات الأعلام شجرة من عهد حام بن نوح عليه
السلام وكان لحام هذا ولد يلقب بمشبع الطيور إذ كان يلقى الحب فى
البيداء ويذبح الذبائح ويوزعها على الجبال ورءوس الأشجار ، ورزق بنتاً
سماها ذات الأنوار وكانت فارسة مهيبة ورثت ملك أبيها ، ودان لها بالطاعة
قاصى البلاد ودانيها ، فطلبت من رجال دولتها أن يقترحوا عملا يخلد ذكرها
ويبقى لها ما بقى الزمن ، فأشار بعضهم أن تغرس شجرة وتسميها باسمها
« ذات الأنوار » وتجعل لها عيداً مدته ثلاثة أيام من شهر أذار من كل
سنة يبدأ فى اليوم الذى يتساوى فيه الليل والنهار ، يفد إليها الناس فيه من
كل صوب ، فقالت : وأريد مع هذه الشجرة أن أبنى حصناً عظيما لا ينال
منه مرور الزمن ، فقالوا : وليكن هذا الحصن على جبل الغاب الممتد
فى السماء نحو ألف ذراع ، وبذلك تشرفين منه على كثير من البقاع ، ومرت
الأعوام والدهور حتى لحق سليمان بن داود عليه السلام بربه وانطلقت
الجن من إسار خدمته ، وسكن فى تلك الشجرة عفريت من الجن ، وهو الذى
يخرج منها ناراً ودخاناً ، وبقيت أعيادها قائمة حافلة بالزائرين كل سنة ،
وعندها يذبحون الذبائح ويقدمون القرابين ويبخرونها بالعود والند ، فقال عنترة :
وهل تضرب هذه الشجرة بالسيف وتطعن بالرمح ؟ فقالت : لا تفعل شيئاً
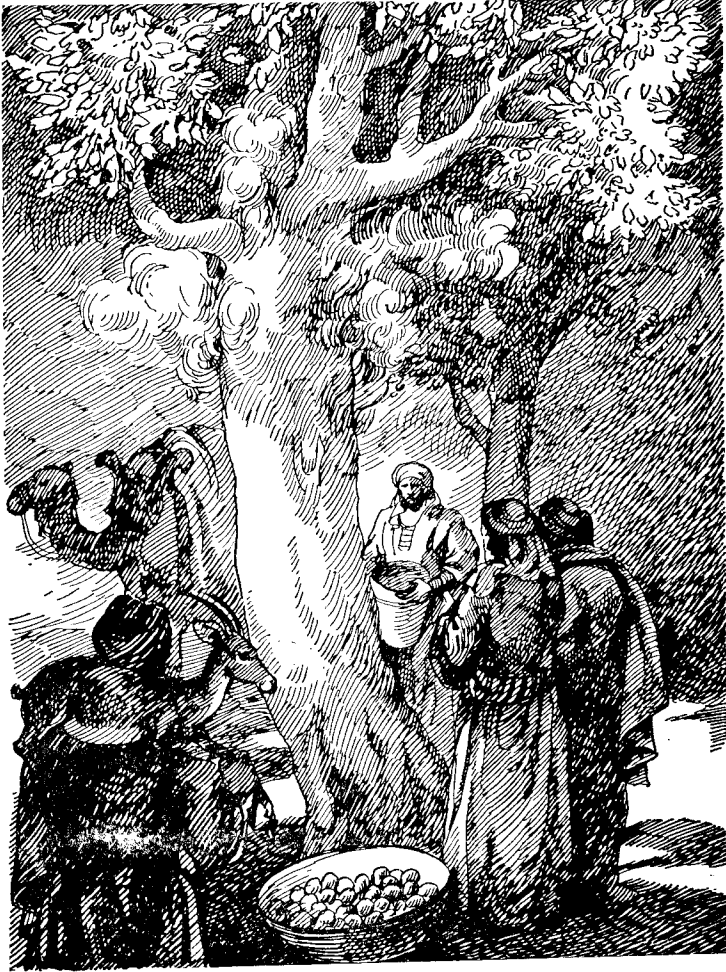
الشجرة ذات الأنوار ، يقدم الناس لها القرابين

من ذلك ، ولكن لا يدخل عدو أرضها إلا وأرعدت الدنيا وأبرقت ، وأخذتهم الصواعق فأحرقتهم وأحرقت دوابهم وأموالهم ، وبعد ذلك يأتى أهل تلك الأرض فيذبحون عندها الذبائح ويطعمون منها الفقراء والمساكين ، فيسمع لتلك الشجرة أنين فى مثل صوت الرعد وينبثق منها عمود من نار يصعد فى السماء ويكاد نوره يذهب بالأبصار ، فيفرح أهل تلك الأرض ، ويعتقدون أن قرابينهم قد قبلت ، وأنهم أمنوا غضبتها ، ثم يأخذون ما بقى من عظام الأعداء فيبخرون بها أطفالهم وصغارهم اعتقاداً منهم أن فى ذلك بركة من الشجرة ، فتحير عنترة وسألها : ألا يمر بتلك الشجرة قوافل للتجارة ؟ فقالت : يمرون بها ويبيعون ما معهم من بضاعة ، ولكنهم يلبسون زرق الثياب ويكحلون أعينهم اليسرى ويصومون ثلاثة أيام عند قدومهم وعند مغادرتهم أرضها ، وكذلك وجدناهم على هذه الحال التى استمرت دهوراً ، فقال عنترة : على الرغم من حيرتى وعجبى مما تقولين فلا مفر لى من امتلاك الحصن وتزويج ابنة همام بصفوان بن لون الظلام ، ثم انفض المجلس بعد اتفاقهم على الرحيل غداً للإغارة على غوار بن دينار ، أما صفوان فقد كتم همه فى صدره وأوى إلى خيمته .

وبعد مسيرة نصف يوم كانوا مشرفين على أرض المخافة التى للملك غوار فوجدوها عامرة بالخيام حافلة بالخيرات تتحدث بالغنى والرفاهية ، وكانوا قد تأهبوا للمسير إلى عنترة وعلى رأسهم غوار بعد هزيمة جيشه مرات

وقتل قواده ، والتقى الجيشان واشتعلت نيران الحرب بينهما ، ونشر الموت على رءوسهم ألويته حتى أقبل الظلام فكفوا عن القتال ليستأنفوه فى صبيحة الغد، وكان جيش عنترة غالباً فائزاً فأكلوا وناموا مسلمين أنفسهم إلى حراسهم ، أما الملك غوار وجماعته فقد ضاقت الدنيا فى وجوههم وملأ الرعب من عنترة صدورهم ، فباتوا كاسفين يتحسرون ، وجاء اليوم التالى فكانت هزيمتهم فيه أعنف وأوجع من هزيمتهم فى اليوم الأول ، وأوى جيش عنترة إلى منازله وناموا فى حراسة فرسانهم ، أما غوار وجيشه فقد لاذوا بخيامهم وهم متعبون مرهقون تظللهم سحب من همّ وغم عظيمين لما فقدوا من رجال وما لاقوا من شدائد ، فقال غوار لهم : إن دامت هذه الحال فعلى ملكى العفاء ، وإن لم ينجدنا الملك همام بجيوشه فسنكون طعمة للموت الزؤام ، وفى اليوم الثالث دارت رحى الحرب فكانت وبالا على غوار ، وانتهى يومهم هذا وهم مغلوبون مضطربون ، وكانت جماعة عنترة قد فقدت صفوان بن لون الظلام من صباح ذلك اليوم فلم يشغلهم الحزن لفقده عن خوض المعركة ، وجعل عنترة يسأل عنه فى مساء ذلك اليوم فلم يجد له خبراً فكلف أخاه شيبوبا أن يأتيه بخبره ، فقال : سأذهب إلى جيش غوار لأتبين هناك أمره ، وإن أبطأت عليكم فاطلبونى بسيوفكم ، واطمئنوا فإنى لن أعود إليكم إلا ومعى النبأ اليقين .

وكانت غيبة صفوان هى حيلة دبرها قسورة وهو فارس من فرسان

الملك غوار ، وذلك أن غوارا قال لخاصته : لقد قتل هؤلاء العرب منا كثيرين ، وكنت أنا اليوم على شفا الأسر المهين ، فقد وقع زمام جوادى فى يد صفوان ، ومعه فارس أخف من الغزال ، ولولا كثرة الرجال من حولى لكنت الآن من المعتقلين ، وبودى أن يقع صفوان فى يدى حتى أقتله ولكن كيف السبيل إليه وهو بين فرسان كأنهم مردة الشياطين ، فقال قسورة : أنا آتيك به لا بقتال أو كفاح ، ولكن بحيلة أعرفها وأعتقد أنها ناجحة ، فقال : عجل بها ولك عندى من الجوائز ما تشتهى .

وطلب قسورة خيام بنى عبس خفية حتى كان أمام خيمة صفوان فسمعه يتوجع ويندب حظه العاثر وعجزه عن الزواج من أعجوبة الأنام ، فناداه قسورة : يا غلام ، أأنت صفوان الملقب ببدر التمام ؟ فقال : ومن أنت أيها المنادى ؟ وماذا تريد من صفوان ؟ دعه يقاسى وحده آلام الهوى فقال : اخرج حتى ألقى فى سمعك ما حملته لك من أعجوبة الأنام ، فخفق فؤاده ونسى نفسه وخرج مسرعاً إليه وهو لا يدرى كيف لبى النداء وأطاع ولكنه الحب يعمى ويصم ، وقال : ماذا حملت إلىّ من أعجوبة الأنام أيها الفتى الكريم ؟ فقال : أرسلتنى إليك لأخبرك أن أباها قد مات منذ عشرين يوماً وقد طمع فيها قومها ، ولكن قلبها مملوء بمحبتك ولن ترضى عنك بديلا ، وقد أطعتها وبلغتك ، وإن أردت الذهاب إليها فإنى طوع يمينك ، فقال : أسير معك الآن خفية ولك شكرى ، ثم ركب جواده،

وسار قسورة من خلفه حتى كان قريباً من جيش غوار ، فقال له اختبئ فى هذا المكان حتى أذهب إلى هؤلاء القوم وأحضر جواداً أركبه معك ، وكان شغف صفوان بفتاته لا يزال يطبع على قلبه فقال : وإنى فى انتظارك ثم نزل عن جواده وجلس ينتظر قسورة .

ذهب قسورة إلى غوار وقص عليه ما فعل وطلب أن يرسل معه عدداً من الفرسان للقبض على صفوان وإحضاره بين يديه فأمر له بمائة فارس ، وهناك قبضوا عليه وحملوه إلى غوار ، فأوجعه ضرباً وإيلاماً وأشار عليه بعض خاصته أن يعجل بقتله فقال : لن أقتله حتى أحضر ماردهم عنترة لأقتل الاثنين فى ساعة واحدة ، ثم أثنى على قسورة ومنحه جائزة سنية .

انفلت شيبوب إلى جيش غوار ليقف على خبر صفوان فتنكر وغير معالم وجهه وربط يده وعلقها فى عنقه كأنها مكسورة ، واختلط بهم على هذه الحال البئيسة ، وكلما سأله أحد عما به قال : إنى من رجال سويد ابن عويد ، لقينى أحد رجال عنترة فكسر يدى وضربنى على جبهتى فورمت ، ولو لم يفرق بينى وبينه زحمة الجنود وتكاثرهم لقتلنى ، فسألوه : أما عرفت هذا الرجل الذى لقيك وفعل بك هذا ؟ فقال : سمعت أنه شيبوب أخو عنترة وكان معه لون الظلام وابنه صفوان الملقب ببدر التمام فقالوا له : أبشر فقد انتقم الله لك فقد أسر صفوان وأوجعه ملكنا غوار ضرباً وسيقتله هو وعنترة فى وقت واحد ، فقال : الحمد لله الذى انتقم

للضعفاء أمثالى ، وكيف أسرتم هذا الفارس القاسى ؟ فقالوا : أسره قسورة ابن جوهرة بحيلة دبرها وقصوها عليه ، فقال : هذا فارس ماهر ويستحق منكم أعظم مكافأة ، وليته يحتال للقبض على شيبوب ولون الظلام اللذين كانا معه وهو يضربنى وما رق قلب واحد منهما من أجلى ، ثم تركهم سائراً إلى الخيام وجعل يمشى بينها وما أنكره أحد منهم ، لأنهم ظنوه من منكوبى القتال والمصابين بأخطاره وشروره ؛ وما زال يجول متنقلا بين البيوت حتى رأى صفوان مقيداً مطروحاً أمام بيت غوار وحوله جماعة من العبيد وكل إليهم أمر حراسته فجثا بجانب الخباء متألماً ، ولبث فى مكانه حتى غط العبيد فى نومهم ، ثم أقبل على صفوان فحل وثاقه ، وخلصه من قيوده وهو لا يعرفه ويعجب من صنيعه معه فقال له : أنا شيبوب أخو عنترة ، فانهض واتبعنى حتى أخرج بك إلى البيداء ونجد فى الفرار إلى أبيك وأهلك .

وبينما هما سائران فى البيداء اعترضهما فارس على جواده فتأمله صفوان وعرف أنه قسورة فقال لشيبوب : هذا الذى احتال علىّ وأوقعنى فى الأسر والعطب ولا بد من قتله . فقال شيبوب : تمهل ولا تعجل واترك لى أمر قتله ثم تقدم شيبوب إليه وسأله : من أين ؟ وإلى أين أيها الفارس ؟ وهل خلفك أحد يطلبك ؟ ولما تمكن منه بقر بطنه بخنجر كان معه ، وأركب صفوان جواده ، وأسرعا آمنين إلى بنى عبس ففرحوا بهما ، وقص عليهم شيبوب

ما فعله لخلاص صفوان فأثنوا عليه ثناء جميلاً .

* * *

وقال صفوان : لقد مررنا ونحن راجعون على حصن لا يمر به غريب تظن به الظنون إلا كان من الهالكين ، فالتفت عنترة إلى أخيه كأنه يسأله عن هذا الحصن ومن فيه ، فقال : إنه حصن لملك جبار يدعى الخاطف ابن الخاطفة ولا يقاتل إلا راكباً زرافة تجفل منها الجياد ، وحدثنا الرواة عنه فقالوا : إنه كان مأوى لجنية ولا يقرب منه إنسان إلا تخبطته من المس ، وكانت الأرض التى فيها هذا الحصن لملك يدعى سعدان ، وكان المنهال قائد جنده ، فظن ملكه سعدان أنه يحتال لنزع الملك منه لنفسه ، فلما أحس المنهال منه أنه يريد قتله ليأمن من شره وغدره ، لجأ إلى الحصن وهو خراب ، وقال : لأن أموت فيه صبراً خير من أن يقتلنى سعدان غدراً . وربما كتبت لى النجاة ، فلما دخله وجد فيه جنية : رجلاها كأرجل الدواب ، وعيناها كأعين البقر ، وأنيابها بارزة من فمها ، وأيديها كالمدارى ففزع وجمد فى مكانه ، فنهضت إليه وسألته : من أنت ؟ وكيف جرؤت على اقتحام حصنى ؟ فأجابها فى اضطراب ووجل : ساقنى إلى هذا المكان خوفى من الملك سعدان ، وقد فقدت من الخوف شعورى فسرت هارباً ولا أدرى أين تسير بى قدماى حتى وجدتنى فى هذا المكان ، فاجعلينى فى حماك ، واجبرى كسرى ، وارحمى ضعفى ، فقالت : لا تخف فأنت فى

حمايتى ولك عونى فيما تريد ، فسرى عنه خوفه وشكر لها معروفها ، ثم دعت أحد أعوانها وكلمته كلاماً لا يفهمه المنهال ، ثم انصرف ورجع فتحدث إليها كأنه يجيبها عما كلفته به ، ثم قالت للمنهال : قم أيها الرجل واتبعنى وأبشر بما كتب لك من سعادة ، فتبعها وهى تسير قدامه حتى وصلت إلى مكان فى هذا الحصن ، فضربت الأرض بقدمها فانفتح لها باب وقالت : انزل ولا تخف ، ثم تدلى فى عشرين درجة انتهت بإيوان واسع فأمرته بالجلوس أمامها فيه ، وأحضرت له مائدة حافلة بصنوف الطعام وقالت : كل واشبع ، ثم نم إلى الصباح . ولما استيقظ جاءته وأحضرت له طعاماً فأكل وقالت له : أكلت زادنا فحرم علينا أن نؤذيك . ولك الآن فى نفوسنا منزلة رفيعة ومكانة سامية ، وقد أحببتك وأريد أن أتزوجك فما رأيك . وكان المنهال جميل الصورة ولم ير مفراً من الموافقة ، فأحضرت فى الحال شخصين من الجن حضرا عقد الزواج ، ثم انتفضت فإذا هى أجمل من رأى المنهال من البنات فى ثياب حريرية لم يجدها على أحد ، وجاء كثير من الجن ورؤسائهم فأقاموا حفلة الزفاف ثم انصرفوا ، وقال المنهال فى نفسه : لقد أصبحت بهذا الزواج حاكماً على الجن ، وأصبحت بذلك أقوى سلطان على وجه الأرض ، ولن يجرؤ أحد من ملوكها على مخاصمتى [illegible] وقد أطلعته على كنز فى الحصن يرجع عهده إلى حام بن نوح ، وولد [illegible] المنهال من زوجته الجنية بنتاً سماها زاهية ، ثم ماتت زوجته ومات هو أيضاً

بعد أن صفت الأيام له ، وورثت ابنته زاهية الحكم من بعده ثم تزوجت
من أحد ملوك السودان ، ورزقت منه بنتاً سمتها الخاطفة ، ولما مات أبواها
وكبرت تزوجت أحد ملوك الحبشة ، وجاءت منه بولد سمته الخاطف ،
وكان فارساً جباراً عنيداً ، لا يقاتل إلا راكباً زرافة وله هيبة معروفة ، فقال
عنترة : إذا كان قولكم حقاً فلا ينبغي أن نسير ونترك هذا الحصن خلفنا
دون أن يكون معنا ، وذلك لنأمن على ظهورنا ، فربما سار بجنوده من ورائنا
وبغى علينا ، فقال شيبوب : سأشير عليكم بما إن فعلتموه ملكتم الحصن ،
وذلك أن تقسموا الجيش إلى ثلاث فرق ، وتكمن كل فرقة فى مكان
بحيث تكون كل فرقة على علم بمكان أختها ، وسأكون أنا وميسرة وعضوب
فى الفرقة التى تكمن خلف الحصن ، فإذا ما سرحت أموالهم فى الصباح ،
قتلت رعاتها وسقتها بين يديك ، فإذا نفرت جنودهم لقتالك وردّها طاولتهم
فى القتال حتى تظهر لك الفرقة الثانية ، وحينئذ تبدأ قتالك وتبغى النصر من
ربك ، أما فرقتى فلكى أستولى بها على الحصن ومن فيه من رجال ونساء
وعبيد وأموال ، وإن عارضنا أحد قتلناه ، ثم لبثنا فى انتظاركم لنفتح لكم
أبوابه لتدخلوه آمنين ، فقال لون الظلام : هذا تدبير حكيم ، ولكن
أخشى أن تصل إلينا جيوش السودان فتفعل بنا ما نريد فعله بالحصن ،
وبذلك نقع فى ورطة قد لا تكون لنا منجاة منها ، فقال شيبوب : لن تصل
إليكم عساكر السودان قبل ثلاثة أيام ونحن بفضل الله وعونه سنملك

الحصن فى ضحوة من نهار ، وكذلك نفذت مشورة شيبوب فملكوا الحصن
وهزموا الجيش وقتلوا الخاطف ، ودخلوا الحصن واستولوا على ما عثروا عليه فيه
من أموال وكنوز . ثم ترك فى الحصن ألف فارس على رأسهم غانم بن
بسام ، ثم رجع ومن معه إلى حيث ينتظرهم لون الظلام ، وهناك جمعوا
جموعهم وساروا يطلبون ديار الملك غوار ، أما فلول أصحاب الحصن فقد
ذهبوا إلى غوار وحكوا له ما فعله عنترة بهم فساوره الخوف على ملكه منهم ،
وكان قد افتقد الفارس صفوان وضرب أعناق حرسه من العبيد ، فلم يجد
مفراً من أن يقوى نفسه فأرسل إلى الملك همام يستنجده ويخبره بما فعله
عنترة . وكان همام هذا فارساً وملكاً جباراً ، له مدينة بنيت من الحجر .
ويقال إن الجن بنوها لسليمان عليه السلام ، وبالقرب منها تل به شجر
لا يعرف نوعه وفى وسطه سيف قائم لم يطر فوقه طائر ، ولم يستطع أحد أن
يمر به إلا إذا كان فى ثياب بيض ، وإلا عصفت به الرياح وهطلت فوقه
الأمطار ، وجعل همام لهذا المكان من يحرسه ، وكان بجواره بيت إذا مات
أحد أدخلوه فيه فنزعوا لحمه وألقوه للغربان وطردوا عنه بقية الطير ، أما
العظم فيضعونه فى أكياس كالأكفان ، وصناعة أهل هذه المدينة عمل
الآلات الحربية من سيوف ودروع ورماح وطاسات وغيرها .

أرسل غوار إلى همام يستنصره وقال : أهلك عنترة العباد وخرب البلاد
وقتل صاعقة وسويدا وقد انضم إليه الملك لون الظلام وابنه صفوان ، وأنت

إن أهملت معونتى قتل البقية الباقية من رجالى ، وملك بلادى وربما طمع فيك من بعدى فنزعوا ملكك وطردوك أو قتلوك أو أسروك ، وأرسل إلى همام رسل استنجاده به وفى الصباح قامت الحرب على سوقها بين عنترة وغوار وأبلى كل منهما بلاء حسناً ، وكان الموت لا يجد زاده وطعامه إلا فى جيش غوار ، فلما طواهم الليل قال غوار لأصحابه : سأبارز عنترة غداً لأقتله وأكفيكم شره ، فلولاه فى هذا الجيش ما قامت له قائمة .

وأشرق الصبح على الجيش وليس فيه عنترة وصفوان ، وجعل كبار الجيش وقادته يتساءلون ويبحثون خفية فما عرفوا لهما مكاناً ولا خبراً ، فحزنوا وخافوا على الجيش أن تكسر شوكته ويهزم هزيمة منكرة ، فقال عضوب : اكتموا نبأ فقدهما حتى لا يضعف الجيش ويطمع فينا الأعداء وأغلب الظن عندى أن أبى أخذ صفوان وذهب به إلى همام لينزع منه ابنته ويزوجها من صفوان فقد برح به الحب وأضناه ، فقال شيبوب : ذلك أمر لا أستسيغه ولا أصدقه وما فقد أخى وصفوان إلا بمكيدة دبرت لهما ، ووقعا فى حبائلها فادفع عنك الظنون والهواجس واستعدوا لكفاح مرير ولا تجعلوا للعدو سبيلا إلى هزيمتكم فى غيبة عنترة ، وإنى تارككم لأبحث عنهما وآتيكم بخبرهما ، وبعد ذلك رأوا غواراً فى الميدان ينادى أن يبرز لى فارسكم عنترة فعلموا أنه جاهل أمر فقده ، وسيق إليه فارس من أصحاب لون الظلام فقتله غوار ثم قال : ليس من الإنصاف يا عرب الحجاز أن

تحجزوا أنفسكم وتعرضوا غيركم للهلاك ، أين أسودكم عنترة ؟ إنى أطلبه لأريكم قيمته وأجعله صريع سيفى على ملأ من جيشكم وجيشى ، فبرز إليه الفرسان وجعل هو كلما برز إليه فارس أرداه قتيلا ، فصعب على غمرة أمر الفرسان ، ونهضت إلى الميدان على جواد كالبرق وتبعها بقية الجيش ، وقامت ملحمة عنيفة لم يسكتها إلا رؤية جيش قادم من وراء جيش غوار ، فانتظر الفريقان حتى ينكشف لهما أمر هذا الجيش القادم فلما دنا منهما سمعوه يقول : قاتل هؤلاء العرب اللئام يا غوار فنحن أصحاب الملك همام ، جئنا لنساعدك ونقضى على تلك الفئة الباغية ، وكان هذا المدد عدته تربو على خمسين ألفاً ، وبدأت بين الفريقين معارك أليمة دامت أياماً عدة ، وبنو عبس يئنون تحت أعبائها ويحملون فى جلد أثقالها ، مخافة أن يظهر عليهم غوار ، وكانت هذه المعارك ثقيلة الوطأة على الجانبين ولكن غوارا ثبت جنانه ورجا نصراً عظيما حينما جاءه رسول همام يبشره بأسر عنترة وصفوان ، وقد كاد لا يصدق حتى ذكر له المكيدة التى دبرتها أعجوبة الأنام .

وذلك أنها رأت قلق أبيها من عنترة وخوفه على ملكه أن يضيعه فقالت لا تجزع يا أبى واسمح لى أن أفعل ما أريد ، وأنا أجيئك بعنترة وصفوان مقرنين فى أصفاد من حديد ، فقال : افعلى ما تشائين . فتنكرت فى زى فارس وركبت جوادها وسارت فى جماعة من فرسان أبيها ، وقبل منازل

عنترة وجيشه تركتهم مختبئين فى انتظار عودتها ، ودخلت المنازل حتى سمعت صفوان يردد شعراً فى حبها فدخلت عليه خباءه وسلمت عليه فرد السلام وقال : ماذا تريد أيها الفارس ؟ ! وماذا جرى حتى أتيتنى فى هذه الساعة من الليل ؟ ! فقالت : ألا تعرفنى ؟ ! فقال : لا ، ثم كشفت عن وجهها قائلة : أنسيت أعجوبة الأنام التى حرمت لذيذ المنام من أجل شغفها بك ؟ ! فغرق فى سكرة من الفرح والهيام وقال : وكيف جئت فى هذا الليل ؟ ؛ فقالت : ليس هذا وقت الحديث ، فقد كدت أموت من بعدك ، فعرضت نفسى للخطر وجئتك لأسلم إليك ملك أبى بعد أن تحتال على هلاكه لنعيش معاً فى سلام وهناءة ، وقد انتهزت فرصة غيابه فى الصيد وحضرت مسرعة إليك لتقوم معى ونتعاون معاً فى تنفيذ ما أخبرتك به ، فقال : لنأخذ معنا عنترة ، فمن غيره لا نستطيع عمل شىء ، وهو الذى يحقق لنا كل ما نريد . فقالت : أسرع واحذر أن يعلم بنا أحد ، ثم أخبر صفوان عنترة ومضيا إليها فسلمت عليه وقبلت يديه ، وعذر صفوان فى حبها لرائع جمالها ، ثم أعادت على سمعه ما دبرته من كذب واحتيال ، ونعوذ بالله من كيد النساء ، ولم ينتبه عنترة إلى أن يصحب شيبوبا معه ، والتقت بجماعة الفرسان الذين أتوا معها ، وساروا جميعاً حتى وصلوا إلى الديار ، فسألت بعض الفرسان الذين كانت قد أعدتهم للقائها بعد عودتها عن أبيها فقالوا : لا يزال غائباً فى الصيد والقنص ، فلما سمع عنترة تلك

الإجابة ذهب من نفسه ما كان يساورها من ريبة وشك فى خبر أعجوبة الأنام . وما زالت سائرة بهما حتى دخلت القلعة وهم لا يجدون إلا إجلالا واحتراما خديعة ومكراً وسألوها عنهما فقالت : من عند الملك غوار بن دينار أرسلهما إلى أبى ، ولما وصلت بهما إلى مكان أعدت فيه فرساناً ، وعلمتهم بما يفعلون بمن يكون فى صحبتها عند قدومها — قاموا إليها دفعة واحدة وأوثقوهما فى الحديد ثم سارت بهما إلى أبيها فقال : ويل لك أيها الأسود اللئيم كيف تجرؤ على انتهاك حرمة بلادى ؟ ! فقال عنترة : أجرؤ على بلادك وبلاد عشرة من أمثالك ، ولولا مكيدتك الخبيثة ما كنت ترانى على هذه الحال ، فتعسا لك ولمكيدتك الدنيئة التى لا يلجأ إليها إلا كل ضعيف لئيم . وهمّ أن يقتله فمنعته أعجوبة الأنام قائلة : لا خير فى العجلة ، والتدبر حتى تعرف ما جرى على الملك غوار ، وحتى نحتال لأسر الملك لواء الظلام فقال : احبسوهم حتى ننظر فى أمرهم .

جاء رسول همام إلى غوار وبشره بأسر عنترة وصفوان ففرح وقال : بلغه ألا يعجل بقتلهما فإنه إن قتلهما قتل بنو عبس من أسروهم منا وهم كثيرون .

اشتدت المعارك وأسر بنو عبس كثيراً من رجالهم وأصروا على أن يقتلوا أو يأسروا غوارا ، ليخضد هذا من شوكة جيشهم ويذهب صبرهم ، وخاصة بعد أن أسروا ميسرة وعروة ، ولما وقع غوار فى أيديهم أسيراً هموا أن

يقتلوه ، فقال لهم : إن قتلتمونى قتلتم عنترة وصفوان ، ويحسن أن تبقونى فعسى أن أكون فداء لهما ، فاهتموا بحديثه هذا وقالوا : وأين عنترة وصفوان الآن ؟ فحكى لهم قصتهما ، ومن هذا الوقت كان هم بنى عبس أن يأسروا ذوى الشخصيات الكبيرة من جيش غوار ولا يقتلوهم ليجعلوهم فيما بعد فداء لعنترة وصفوان ، وكانت غمرة وعضوب ولون الظلام يهتمون بحركات الأعداء وما يجرى بينهم ، وقد أدهشهم حادث عجيب فى جيش غوار والحرب لا تزال قائمة .